

أشكال الخطاب النثري الفني
في العصر الجاهلي



حسين علي الهنداوي

أشكال خطاب النثر الفني الجاهلي



أشكال الخطاب النثري الفني في العصر الجاهلي



جميع الحقوق محفوظة
لصاحب الموسوعة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



حسين علي النداوي

أشكال خطاب النثر الفني الجاهلي



ترجمة المؤلف

حسين علي الهنداوي

- أ- أديب وشاعر وقاص ومسرحي وناقد وصحفي
ب- له العديد من الدراسات الأدبية والفكرية
ج- نشر في العديد من الصحف العربية
د- مدرس في جامعة دمشق . كلية التربية - فرع
درعا
هـ- ولد الأديب في سوريا - درعا عام ١٩٥٥ م
و- تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي في
مدينة درعا
ح- انتقل إلى جامعة دمشق كلية الآداب - قسم
اللغة العربية و تخرج فيها عام ١٩٨٣
ك- حائز على إجازة في اللغة العربية

- ص-حائز على دبلوم تأهيل تربوي جامعة دمشق
ع- عمل محاضراً لمادة اللغة العربية في معهد إعداد
المدرسين - قسم اللغة العربية في مدينة درعا
ف- انتقل إلى التدريس في المملكة العربية
السعودية عام (١٩٩٤ / ٢٠٠٠) في مدينتي
عنيزة وتبوك .

- عضو اتحاد الصحفيين العرب

- عضو اتحاد كتاب الانترنت العرب

- عضو تجمع القصة السورية

- عضو النادي الأدبي بتبوك

الصحف الورقية التي نشر فيها أعماله :

- ١- سوريا (تشرين - الثورة - البعث - الأسبوع
الأدبي) ٢- الإمارات العربية (الخليج)
- ٣- السعودية (الرياض - المدينة - البلاد - عكاظ

(

٤- الكويت (الرأي العام - الهدف - الوطن)

المجلات الورقية التي نشر فيها أعماله :

١- مجلة المنتدى الإماراتية

٢- مجلة الفيصل السعودية

٣- المجلة العربية السعودية

٤- مجلة المنهل السعودية

٥- مجلة الفرسان السعودية

٦- مجلة أفنان السعودية

٧- مجلة السفير المصرية

٨- مجلة إلى الأمام الفلسطينية

مؤلفاته :

أ- الشعر :

١- هنا كان صوتي و عينك يلتقيان /١٩٩٠



- ٢- هل كان علينا أن تشرق شمس ثبير/ ١٩٩٤
- ٣- أغنيات على أطلال الزمن المقهور / ١٩٩٤
- ٤- سأغسل روعي بنفط الخليج / ١٩٩٦
- ٥- المنشئ يسلم مفاتيح ايلياء/ ١٩٩٦
- ٦- هذه الشام لا تقولي كفانا /
- ٧- هل تعلمون من حبيبيتي !!!؟؟؟

ب- القصة القصيرة :

- ١- شجرة التوت / ١٩٩٥
- ٢- زنكه

ج - المسرح :

- ١- محاكمة طيار / ١٩٩٦
- ٢- درس في اللغة العربية / ١٩٩٧
- ٣- عودة المتنبي / مخطوط
- ٤- أمام المؤسسة الاستهلاكية / مخطوط



د - النقد الأدبي :

- ١ - محاور الدراسة الأدبية ١٩٩٣
- ٢ - النقد والأدب / ١٩٩٤
- ٣ - مقدماتان لنظريتي النقد والشعر /
- ٤ - أسلمة النقد الأدب

هـ - الدراسات الفكرية والدينية :

- ١ - الإسلام منهج وخلص . الجزء الأول
- ٢ - الإسلام منهج وخلص . الجزء الثاني
- ٣ - الإسلام منهج وخلص . الجزء الثالث
- ٤ - فتاوى واجتهادات / جمع و تبويب
- ٥ - هل أنجز الله وعده !!!!!

و- اللغة العربية

- ١- النحو العملي المستوى الأول

- ٢- النحو العملي المستوى الثاني
 - ٣- النحو العملي المستوى الثالث
 - ٤- النحو العملي المستوى الرابع
- الصحف الالكترونية التي نشر بها :**

- ١-قناديل الفكر والأدب
- ٢- أنهار الأدب
- ٣- شروق
- ٤- دنيا الوطن
- ٥- ملتقى الواحة الثقافي
- ٦- تجمع القصة السورية
- ٧- روض القصيد
- ٨-منابع الدهشة
- ٩- أقلام
- ١٠- نور الأدب

أشكال الخطاب النثري الفني في العصر الجاهلي



حسين علي الهنداوي

أشكال خطاب النثر الفني الجاهلي



قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

. حدثنا عبد الله بن يوسف :

أخبرنا مالك عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عمر

رضي الله عنهما :

أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس

لبیانهما،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((إِنَّ مَنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، أَوْ إِنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ سِحْرٌ))

. صحيح البخاري

/٥٧٦٧/



حسين علي النداوي

أشكال خطاب النثر الفني الجاهلي



كتاب

أشكال الخطاب النثري الفني في العصر الجاهلي



حسين علي النداوي

أشكال خطاب النثر الفني الجاهلي



الباب الأول

تعريف النثر وميزاته

أ- تعرّف العرب الجاهليين على النثر:

يقصد بالنثر الجاهلي كل ما قيل من كلام غير موزون وغير مقفى ، وهو ضربان : نثر عادي و نثر فني ؛

١- **النثر العادي** : ما عبر عن قضايا مختلفة بلغة لا تحمل قيما بلاغية ،

٢- **النثر الفني** : ما عبر عن مواقف مختلفة بلغة فنية بلاغية مقصودة ؛ والنثر في العصر الجاهلي إذا ما قيس بالشعر كان نثرا قليلا لأسباب متعددة إضافة إلى أن حظ العرب في العصر الجاهلي كان قليلاً في الكتابة والتأريخ، والأدب في حقيقته تأريخ

بلغة فنية . ولا نعرف من الكتابة عند العرب إلا ما كان (يصفه لنا أمية بن أبي الصلت وهو من الشعراء الحنفاء الذين كانوا يكتبون الكتاب العبراني يترجمون الكتاب المقدس من العبرية إلى العربية ، وما ورد عن ورقة بن نوفل الذي كان أيضاً يكتب الكتاب العبراني) ، والنثر، هو الكلام الذي لم ينظم في أوزان وقواف، وهو على ضربين:

أما الضرب الأول: فهو النثر العادي يقال في لغة التخاطب، وليست لهذا الضرب قيمة أدبية، إلا ما جرى فيه أحيانا من أمثال وحكم،

وأما الضرب الثاني: فهو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة، وهذا الضرب هو الذي يعنى النقاد في اللغات المختلفة ببحثه ودرسه، وبيان ما مر به من أحداث وأطوار، وما يمتاز به في كل طور من صفات وخصائص، وهو يتفرع إلى الخطابة والكتابة الفنية - ويسمىها بعض الباحثين باسم النثر الفني - وتشمل القصص المكتوب، كما يشمل الرسائل الأدبية المحبرة، وقد يتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة. ومن يرجع إلى العصر الجاهلي، وأخباره يجد هذا الضرب الأخير من النثر يلعب دورا مهما في حياة العرب حينئذ، إذ كان عرب الجاهلية

مشغوفين بالتاريخ والقصص عن فرسانهم ووقائعهم وملوكهم، يقطعون بذلك أوقات سمرهم في الليل وحول خيامهم، وقد دارت بينهم أطراف من أخبار الأمم المجاورة لهم ممتزجة بالخرافات والأساطير، ففي السيرة النبوية المشرفة أن النضر بن الحارث المكي، كان يقص على قريش أحاديث عن أبطال الفرس أمثال رستم وإسفنديار، وأكثر ما كان يستهويهم من القصص أحاديث قصاصهم عن أيامهم وحروبهم في الجاهلية، مما يصوره لنا كتاب شرح النقائص لأبي عبيدة، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، وقد تلاهما اللغويون والأدباء يعنون بتلك الأيام والحروب عناية واسعة على نحو ما هو معروف عن ابن عبد ربه في "العقد الفريد" وابن الأثير في الجزء الأول من كتابه "الكامل"، والميداني في الفصل التاسع والعشرين من كتابه "مجمع الأمثال". وينبغي أن لا نعلق أهمية تاريخية، أو أدبية على هذا القصص، فإن الرواة حرفوا فيه كثيرا قبل أن يأخذ شكله النهائي عند أبي عبيدة، وغيره من مؤلفي العصر العباسي، وتوضح ذلك توضيحا تاما قصة الزباء ملكة تدمر ببادية الشام في القرن الثالث الميلادي، وهي تلك القصة التي رويت في الكتب العربية عن هشام بن محمد الكلبي، والتي تزعم أنها بنت عمرو بن الظرب العمليقي، وأن حروبا نشبت

بينه وبين جذيمة الأبرش ملك الحيرة، وتنوخ انتهت بقتل عمرو، فاحتالت بنته الزباء على جذيمة، حتى قدم عليها فقتلته، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدي، فاحتال بمساعدة أحد أتباعه -ويسمى قصيراً- حتى انتقم منها في مدينتها التي بنتها على الفرات، بأن حمل إلى حصنها رجالا في جواليق أو صناديق، وفتحت له الحصن، وهي تظنه يحمل بعض عروض التجارة، وخرج الرجال من الجواليق، فقتلوا واستولوا على المدينة. وهي أسطورة لا تتفق في شيء ووثائق التاريخ الروماني الصحيحة عن الزباء، أو كما يسمونها زنبوبيا زوج أذينة الذي قتل غدرا، وقد نشرت سلطانها على العراق والشام ومصر وآسيا الصغرى، وصارعت الرومان صراعا عنيفا، حتى تصدى لها "أورليان" وانتصر على جيوشها، وحاصر حاضرتها تدمر، وطال الحصار ويئست من النصر، فحاولت الفرار ولكن جنوده تعقبوها وأسارها، وأخذها معه أسيرة إلى روما حيث قضيت بقية أيامها. وكأن لا علاقة بين شخصية زنبوبيا التاريخية، وشخصية الزباء في القصة العربية، فقد غيرت في القصة جميع المعالم التاريخية، حتى مدينتها تدمر وضع القصاص مكانها مدينتين بنتهما على الفرات، وحتى اسمها وهو "زنبوبيا" حرف إلى الزباء، وقد جلبوا جذيمة من الحيرة ليحل محل

زوجها أذينه الذي قتل غدرًا. وإذا كنا لا نستطيع أن نعتمد على هذا القمص في حوادث التاريخ، فأولى لنا أن لا نعتمد عليه في وصف صورة النثر الجاهلي، وبيان خصائصه الفنية؛ لأنه لم يكتب في العصر الجاهلي، ولا في عصر قريب منه، وإنما كتب في العصر العباسي، ومن أجل ذلك كنا لا نستطيع أن نعتد -من الوجهة الأدبية- بما يروى عن هذا العصر من عناصر القمص والتاريخ؛ لأن الرواة حرفوا لفظه، بل لقد حرفوا معناه على نحو ما حرفوا قصة زنوبيا، أو بنت زباني وأخبارها، ولو أن العرب كتبوا تاريخهم، وقصصهم في العصر الجاهلي لاعتدنا بهذا اللون من نثرهم، ولكنهم لم يكتبوا منه شيئًا. أما ما يروى عن هشام بن محمد الكلبى من أنه رأى في بيع الحيرة بعض مدونات استخراج منها أخبار العرب، فإننا لا نستطيع الاعتماد على روايته؛ لأنه متهم في كثير مما يرويه، وحتى لو صحت روايته، فأغلب الظن أن ما شاهده من تلك المدونات لم يكن مكتوبًا بالعربية، إنما كان مكتوبًا بالسريانية التي كانت شائعة في الحيرة قبل الإسلام. والحق أنه لا يوجد تحت أيدينا دليل مادي على أن العرب تركوا في العصر الجاهلي مدونات تاريخية أو أدبية، وليس معنى ذلك أن الخط العربي لم يكن قد نشأ، فالنقوش المكتشفة حديثًا تؤكد أنه تم

تكونه في الحجاز منذ القرن السادس الميلادي، ومنها انتشر في بعض البيئات الصحراوية، وقد جاء الإسلام . وفي مكة المكرمة سبعة عشر كاتباً، وفي المدينة أحد عشر، وكان بين البدو من يعرف الكتابة مثل أكثم بن صيفي حكيم وخطيبها، وكان ابن أخيه حنظلة بن الربيع من كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن الشعراء المتبددين الذين اشتهروا بمعرفة الكتابة في هذا العصر المرقش الأكبر وهو من بكر، وليبيد بن ربيعة، وهو من بني عامر بن صعصعة. ولعل من الدليل على شيوع الكتابة بين البدو أننا نجد شعراءهم يصفون الأطلال كثيراً بنقوش الكتابة، يقول المرقش في فاتحة قصيدة له معروفة:

الدار قفر والرسوم كما ... رقى في ظهر الأديم قلم

ويقول لبيد في مطلع معلقته:

عفت الديار محلها فمقامها ... بمنى تأبد غولها ورجامها

فمدافع الريان عري رسمها ... خلقا كما ضمن الوحي سلامها

والوحي: الكتابة، والسلام: الحجارة البيض والعظام التي كانوا يكتبون عليها، وكانوا يكتبون أيضاً في الأدم أولاً والأديم الذي مر عند المرقش وهو الجلد المدبوغ، كما كانوا يكتبون في عسب النخل، ويستمر لبيد في معلقته، فيقول:

وجلا السيول عن الطلول كأنها ... زبر تجد متونها أقلامها
والزبر: الكتب. ويقول الأخنس بن شهاب التغلبي: لابنة حطان بن
عوف منازل : (كما رقص العنوان في الرق كاتب) والرق: الجلد
الرقيق، ويقول سلامة بن جندل الفارس المعروف:

لمن ظلل مثل الكتاب المنمق ... خلا عهده بين الصليب فمطرق
وقد رد شعراء البادية هذه الصورة كثيرا في شعرهم. وما من ريب
في أن ذلك يؤكد أن الكتابة كانت معروفة في العصر الجاهلي،
ولكن هذه المعرفة شيء، وأن العرب أحدثوا بها آثار فنية مكتوبة
شيء آخر، هم عرفوها، ولكنها معرفة محدودة، فلم يكتبوا بها كتبا
ولا قصصا ولا رسائل أدبية، وإنما كتبوا بها بعض أغراضه تجارية
وأخرى سياسية، ولذلك لم يكن غريبا أن تشيع في مكة المكرمة ؛
لأنها كانت مركزا تجاريا عظيما، ويحدثنا الجاحظ أنهم كانوا يكتبون
بعض عهودهم السياسية، وكانوا يسمون تلك العهود المكتوبة
"مهارق"، وقد جاء ذكر هذه المهارق في معلقة الحارث بن حلزة
مشيرا بها إلى ما كتب من عهود بين بكر وتغلب، إذ يقول:
واذكروا حلف ذي المجاز وما ق ... دم فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدي وهل ين ... قض ما في المهارق الأهواء

وإذا: فالعرب استخدموا الكتابة في العصر الجاهلي لأغراض سياسية وتجارية، ولكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية خالصة تتيح لنا أن نزعم أنه وجد عندهم لون من ألوان الكتابة الفنية، ومن المؤكد أن الكتابة لم تكن حينئذ تؤدي بجانب أغراضها السياسية، والتجارية أغراضها أدبية، أو فنية من تجويد وتحبير، إذ لم تكن أكثر من كتابة ساذجة أدت أغراضها خاصة في عصرها، وانتهت بانتهاء هذا الغرض. ومما لا شك فيه أنه لا يوجد تحت أيدينا وثائق نستطيع أن ندعي بها أن الجاهليين عرفوا الكتابة الفنية، إنما الذي نستطيع أن ندعيه لهم حقا - عن طريق الوثائق الصحيحة - هو الأمثال، فقط أكثرها من ضربها، وهناك كتب مشهورة تتخصص ببحثها، وبجانب الأمثال نعرف أنه كان لهم خطابة وخطب كثيرة، وقد أخذت الخطابة عندهم صورتهم: صورة اجتماعية عامة في منافراتهم ومفاخراتهم، ومجامعهم وأسواقهم وحروبهم، وصورة خاصة في سجع الكهان، وما كان ينزلق على ألسنتهم أثناء تكهنهم. وقد سلمت لنا طائفة واسعة من الأمثال تناقلتها أجيالهم، والأجيال التي تلتها في الإسلام مما أتاح لها أن تحتفظ بصورتها الجاهلية، ومعروف أن الأمثال لا تتغير بل تظل طويلا على هيئتها التي صيغت عليها، وأما الخطابة وسجع

الكهان، فضاعت نصوصهما إلا قليلاً جداً، إذ بقيت بعض قطع وبعض صيغ منثورة في ثنايا الكتب التاريخية والأدبية، وتؤيد الطبيعة الجاهلية والعقل العربي أن الجاهليين كان لهم نثر أدبي، فليس هناك مانع يجعل ذلك مستحيلاً أو معدوماً، وإذا كان لهم شعر، فلا بد أنه كان لهم نثر، يتحلل فيه القائل من قيود الشعر التي قد تقف أمام الأديب فلا يستطيع أن يلتزمها، والواقع أنه كان لهم نثر، وأنهم حتماً كانوا يجيدون النثر الأدبي، بدليل نزول القرآن، وفهمهم له، ومجادلتهم للنبي صلى الله عليه وسلم فيما كان ينزل عليه، وما يتلوه عليهم، وبدليل تحدي القرآن الكريم لهم أن يأتوا بمثله أو بعضه، والقرآن الكريم ليس شعراً، والتحدي لا يكون له معنى إلا إذا كان في الناحية التي يزعم المتحدي أن له فيها نبوغاً، ويدعي لنفسه عليها قوة واقتداراً، ومن ثم لا بد أن الله عز وجل قد أعجز أمة ذات قدرة فائقة على النثر. ونثر الجاهليين لا شك أنه كان كثيراً، يفوق في الكم ما كان لهم من شعر، وقد سبق أن وضعنا ذلك، ولكن سنة الكون دائماً تجعل الشعر أوفر حظاً من العناية والاهتمام، فيحفظ، ويتناقل، ويروى على مر الأجيال أكثر من الشعر. ولهذا نتوقع أن يكون ما حفظ لنا من نثر الجاهليين أقل بكثير مما حفظ لنا من شعرهم. وإذا كان في الشعر

قافية موحدة، ومقاطع موسيقية منتظمة تجعله أسهل علوقاً بالذهن، وأكثر دواماً بالذاكرة، فإن ذلك أيضاً جعله يثبت في الحفظ، ويتناقل من جيل إلى جيل بالألفاظ والعبارات نفسها اللهم في القليل النادر، فيغلب على الظن؛ حينئذ أن عدم وجود هذه الخاصية في النثر قد أثرت في حفظه وفي روايته، فكان أشق في الحفظ، وأقل دواماً في الذاكرة، ثم كان عرضة للتغيير أو التحوير، مع المحافظة على المعنى المقصود، بطبيعة الحال، ومن هنا لا شك أن النثر الجاهلي كان من الصعب على الرواة أن يحفظوه كله، وإذا حفظوا بعضه، فالغالب أنه قد ضاعت منهم بعض ألفاظه. ولكن مهما يكن، فمن المؤكد أنه بقيت نصوص منه كان لها حظ الرعاية والاهتمام، فظلت سليمة كما صنعها أصحابها، حتى تسلمتها بطون الكتب وأمّهات المراجع، فوصلتنا صحيحة سليمة.

ب-دواعي النثر الجاهلي:

إنَّ ظروف الحياة التي كان يعيش فيها الجاهليون كانت تدعوهم إلى القول النثري، ولا شك أن هذه الظروف نتج عنها نثر لهؤلاء المهووبين في صناعة الكلام وليس لديهم موهبة الشعر، لقد كان للعرب اجتماعات خاصة وعامة، وعلى نطاق ضيق وعلى نطاق واسع، وكانت بينهم منافسات وتسابق في المفاخر، والأمجاد،

والأفعال، والعادات، وحدثت بينهم مشكلات، وخصومات، وعداوات، كما كانت لهم تجارب في الحياة، فتكونت لديهم خبرات، كانوا يحبون -بطبيعة الحال- أن يضعوها بين أيدي من يحبون الأدب، لكي يستفيدوا بها في حياتهم، كل هذه المناسبات كانت تستدعي القول المؤثر الذي يحفل به صاحبه، ويودع فيه من طاقات الإثارة كل ما يستطيع؛ فالقبيلة في مجتمعها الخاص، وبخاصة حينما ينتهون من مشاغلهم اليومية، ويجتمعون بالليل في مجالس السمر، كانوا يتجادبون أطراف الحديث فيما يجري من شؤونهم أو شؤون غيرهم، أو يستمعون إلى من أوتي حظاً أوفر من القدرة على الكلام الفصيح، ولا شك أن أحسن ما كان يشوقهم أن يستمعوا إليه أحاديث الآباء والأجداد، وما كان لهم من مفاخر وأمجاد، ومن ثم لا بد أنه كان هناك قصص طريف يحاول فيه القصاص أن يستعيد الحوادث، ويسردوها للسامعين بأسلوب شيق أخذ، ولا ريب أن هؤلاء القصاصين قد اتخذوا من الحوادث الجارية، والأحداث السابقة مادة لقصصهم، ومن هنا وجدت قصص الأيام التي تحكي تاريخ الحروب بين الجاهليين، وقد حفلت بها كتب كثيرة من أهمها شرح النقائص لأبي عبيدة، وغني عن البيان أن ما يحكيه أبو عبيدة وأمثاله عن الأيام وغيرها مما يتصل

بجاهليين، ليس من نثر الجاهليين ولا يمثل أسلوبهم، إلا ما يجيء في ثنايا كلام المؤلفين من محفوظات بنصوصها تنسب إلى قائلين فهذه جاهلية بالطبع، كذلك حفلت كتب التاريخ القديم بقصص الجاهليين عن ملوك المناذرة، والغساسنة، والحميريين، والفرس، وغيرهم، وبأخبار ساداتهم، ورؤسائهم، وكهانهم، وعشاقهم، وشعرائهم، وما كان لهم من أساطير. وهم في اتصالاتهم بعضهم ببعض، ومع غيرهم كانوا يتحدثون عن خبراتهم وتجاربهم في مختلف الاتجاهات، أو يتبارون في السيادة والشرف، أو في القوة والهيبة، أو في المكانة والاحترام، أو يتناقشون ويتبادلون الآراء لحل المشكلات وفض المنازعات، أو يتآفون بالمحالفات أو المصاهرات، أو يزجون أوقات فراغهم بما يسر آذانهم ويمتع أفئدتهم، كل هذا هيأ فرصاً كثيرة لمن لديهم موهبة أدبية، وليست فيهم مقدرة شعرية لكي يمارسوا فنوناً أدبية نثرية متعددة. ومن ثم وردت لهم في كتب الأدب والتاريخ أنواع من النثر الأدبي، نجد منها: الحكم، والأمثال، والقصص، والمفاخرات، والمنافرات، والخطب، والوصايا، وسجع الكهان. ولم يلق النثر الجاهلي من العناية والاهتمام مثل ما لقي الشعر، فما بقي منه ما زال مبعثراً في بطون الكتب، وعند قراءته تبين أنه كان يوجد في

جميع المناسبات ومختلف الظروف، ولكن إلى الآن لم نجد من اهتم بجمع هذا النثر وتحقيقه وتصنيفه ودراسته. ولا شك أن هذا يحتاج إلى رغبة صادقة، وأناة، ومقدرة على البحث والدارسة، والقيام بذلك عمل عظيم يستحق أسمى التقدير.

ج - خصائص النثر الجاهلي:

شمل النثر الجاهلي عدة نواح في الحياة الجاهلية، فطرق جميع المسائل التي تهم الإنسان في حياته واستخدم وسيلة فعالة في التأثير على النفوس، وفعلًا كان -وما زال- له أثر كبير لا يقل عن أثر الشعر النفسي فهو بذلك نثر أدبي. ومن الفنون الجميلة الرفيعة. كما أنه صور كثيرًا من المشاعر الإنسانية، فجاء في أغراض مختلفة وبخاصة ما كان منه في الخطابة والحكم والوصايا وتبعًا لذلك جاء في صور متعددة. وأساليب متباينة. طبقًا للنواحي التي يعالجها. وفي النماذج النثرية التي سقتها للجاهليين، تجد منها ما هو طويل، ومنها ما هو قصير. ويتجلى القصر بشكل ظاهر في الحكم والأمثال. وتتراوح الخطب والوصايا بين الطول والقصر، ومن عادتهم في الخطب في الزواج يقول الجاحظ: إن الخاطب كان يطيل، ويقصر المجيب ويقول عن خطابتهم بوجه عام: (اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو

والحضر على ضربين: منها الطوال، ومنها القصار. ولكل ذلك مكان يليق به، وموضع يحسن فيه. ومن الطوال ما يكون مستويًا في الجودة، ومتشاكلًا في استواء الصنعة ومنها ذوات الفقر الحسان. والنتف الجياد. ووجدنا عدد القصار أكثر، ورواة العلم إلى حفظها أسرع). وفي النثر الجاهلي تتجلى العصبية القبلية. في الفخر بالأحساب والأنساب في المفاخرات والمنافرات، ويظهر الحب والموودة والرغبة في الخير لأفراد الأسرة أو العشيرة الواحدة في النصائح والوصايا. ولئن شاع عنهم الغضب وسرعة التهور والحمق والسفه، فإننا نرى من خلال هذه النماذج أنه كان فيهم ميل للصلح وحب للخير كهذا الذي نراه في كثير من تصرفات الحكام في المفاخرات والمنافرات وفي مساعي الصلح بين الأعداء والمتخاصمين لفض النزاع بالطرق السلمية. وربما تكون القصص والأخبار التي تحكي عن حوادث معينة لم تحتفظ بألفاظ النص الجاهلي وعباراته نفسها، فاعتراها التغيير من جانب الرواة والقصاصين لكن لا شك أن الأحداث التي فيها، لها أصل تاريخي. أما الحكم والأمثال المنسوبة إلى الجاهليين، فهي في الغالب صحيحة في نسبتها إليهم، خصوصًا ما جاء عن راوية موثوق به كالمفضل الضبي؛ ذلك لأن الحكم والأمثال -على العموم- سرعان

ما تعلق بالذهن، وتظل بالذاكرة مدة طويلة وبخاصة إذا أتحت لها الفرص لإعادتها وتكرارها؛ ثم إنها دونت في عهد مبكر، منذ القرن الأول، فقد كتب فيها عبيد بن شرية كتابًا. وإن كان هذا الكتاب قد فقد، فغلب على الظن أن من كتب فيها من بعده قد انتفع بكتابه هذا. على أن النصوص الدخيلة يغلب على الظن أن تكون تقليدًا مطابقًا للأصل بحيث نستطيع أن نتبين منها خصائص النثر في العصر الجاهلي. والقصص الخرافية والأمثال الفرضية لا شك أنها كانت ترمي إلى تصوير حالات وتصرفات إنسانية ولم يرض مؤلفوها أن يكتبوا عن هذه الحالات أو التصرفات بالتصريح والتعيين، فاخترعوا هذه القصص مكتفين للوصول إلى أغراضهم بالتلميح والإشارة من طرف خفي. ولا ريب أنها كانت ترمي كذلك إلى الناحية التهذيبية والتوجيه إلى الخير والنفع وبخاصة ما كان منها حكمًا وأمثالًا. ولا ريب أن تأليفها يدل على الذكاء، وقوة الملاحظة، وخصوبة الخيال لدى مؤلفيها. وفي النثر الجاهلي ألفاظ وعبارات قد تبدو لنا غريبة. ولكن ذلك ليس لغرابتها في الأصل؛ ولكن لعدم استعمالنا لها، وفي بعض القطع النثرية تبدو السهولة في التعبير والمعنى بشكل واضح، ولا يجوز أن تكون هذه السهولة وحدها سببًا في الطعن في أصالة هذه النصوص، فليست السهولة

متعارضة مع الأصالة الجاهلية، فكثير من النصوص الجاهلية شعرية ونثرية، سهلة الأسلوب، وهي مقطوع بصحتها وأصالتها، وفي القرآن الكريم يتجلى الأسلوب السهل الواضح في كثير من آياته، بل في كل سورة من سوره بأكملها. وواضح جدا أن أصحاب النثر الجاهلي كانوا يعنون عناية ظاهرة بالألفاظ والعبارات فكانوا - على ما يبدو- يختارون ويدققون في الاختيار، ويظهر ذلك في القوة والجزالة، والتنغيم الموسيقي الذي نراه في الجمل النثرية على اختلاف الأشكال والأساليب ففي جميع أنواع النثر الجاهلي نجد الرصانة والانسجام التام بين الكلمات والعبارات بعضها وبعض، كما تظهر الناحية الموسيقية ظهوراً تاماً في كل جملة، حتى إن الجملة قد تصلح أن تكون شطر بيت من الشعر لما فيها من النغمات الموسيقية المنتظمة، وبخاصة في الحكم والأمثال، مثل: "وتحت الرغوة اللبن الصريح"، فهي شطر من الوافر. وجاء في النثر الجاهلي :

١- **نثر مرسل:** ويغلب النثر المرسل في خطب الصلح والمعاهدات

٢- **ونثر مسجع:** وأما النثر المسجع ففي المفاخرات والمنافرات وفي نثر الكهان، بل إنه التزم في هذا الأخير التزاماً فكان الكهان لا يقولون إلا سجعاً ولذلك أطلق على نثرهم "سجع الكهان" ويظهر أن

الجاهليين كانوا يعجبون بالنثر المسجع، حتى إنه كان يجيء أحيانا في الجملة الواحدة، مثل "إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد" و "ليس من العدل سرعة العذل" و "رب قول أنفذ من صول" ولكنه على العموم كان سجعاً لطيفاً وجميلاً في موقعه مما يوحي بأنه طبيعي لا أثر للصنعة فيه، إلا في سجع الكهان، فالتكلف واضح فيه. ويغلب في النثر الجاهلي الميل إلى الجمل القصيرة وبخاصة في الحكم والأمثال حتى إن الجملة قد تجيء مكونة من لفظتين فقط مثل "حر انتصف" و "سميعة دعوت". كما كان يتخلل نثرهم، وبخاصة الخطابة، أبيات شعرية، فتضفي على الكلام جمالاً، وروعة. وفي النثر الجاهلي الوضوح والصرحة بحيث لا يحتاج إلى كد الذهن أو التعمق في الخيال، وليس هناك غموض إلا في سجع الكهان، وقد ذكرنا آنفاً أن الكهان كانوا يتعمدون الإبهام في سجعهم، فكانوا يقصدون إليه قصداً. وقد ورد في النثر بعض المحسنات البلاغية كالتشبيهات والاستعارات، والجناس؛ كما في "العدل" و"العذل" في "ليس من العدل سرعة العذل"؛ وكما في "قول" و"صول" في "رب قول أنفذ من صول". ومن هذا كله يتبين أن النثر الجاهلي يمكن أن نعتمد عليه في تصوير الحياة واللغة العربية في العصر الجاهلي تصويراً صادقاً، ومن أنواعه المختلفة

يتضح أنه كان متنوع الأغراض متعدد الاتجاهات. وهو يدل دلالة واضحة على قوة الملاحظة، ودقة الإحساس، ورقة الشعور لدى أصحابه، ويتجلى فيه ذوقهم الفني بما تحقق لهم فيه من حسن التعبير وجمال التصوير.

د- ميزات النثر الجاهلي :

يتميز النثر الجاهلي بالميزات التالية:

- ١- أنه وليد الطبع غالبا .
- ٢- بعيد عن الصنعة والزخرف والغلو في معظمه.
- ٣- يعتمد على السجع الذي يأتي على السجية
- ٤- يعتمد على قوة الألفاظ ومثانة التراكيب
- ٥- سطحي الفكرة
- ٦- لا توجد فيه روابط بين الأفكار
- ٧- ينزع إلى الإيجاز والموسيقا في الجملة والأسلوب .

الباب الثاني

فنون النثر الفني

في العصر الجاهلي

تعددت أنواع النثر الفني الأدبي في العصر الجاهلي بتعدد الأهداف التي كتبت من أجلها هذه الأنواع ومنها :

١-الخطابة: وهي نوع أدبي موغل في القدم وله مكانة بارزة ومستمرة حتى يومنا هذا وذلك لقيمته الكبيرة في ميادين الحياة السياسية والاجتماعية وهي تمثل العصر الجاهلي بكل أبعاده

٢-سجع الكهان: وقد عرفه العصر الجاهلي معرفة عميقة وإن انقطع بعد ظهور الإسلام لارتباطه بالطقوس الوثنية الدينية وقد كان النثر الجاهلي يقوم على استقراء الغيب واستكناه خفايا المستقبل وتأويل الرؤيا وبيان ما يشغل عقول الناس من حقائق وذلك لتوجيه الناس وقيادتهم وفق مصلحة الكهان من خلال

عبارات تتميز (بالسجع) الغامض الذي يلف معاني النثر وهي نصوص مفتعلة مصنوعة موجزة ومركزة .

٣- الوصايا: وهو نثر فني يتضمن خلاصة تجارب الإنسان والحياة يكون مباشراً أو في صحيفة لتنظيم حياة الفرد أو الجماعة الموصاة تصاغ بعبارات فنية مؤثرة لترسخ في ذهن السامع أو القارئ بلغة الإيجاز .

٤- المفاخرات: وهي معارضة الخصم بالتمدح بالخصال وعد القيم والمآثر فإذا أسكت المفاخر خصمه ، فقد فخره وغُلبه وهي نوع يتميز بالإيجاز عرفه الجاهليون بسبب ارتباطه بطبقة النظام القبلي وعصبياته يتفجر من حين لآخر على السنة بعض المتحمسين لعصبيتهم .

٥- المنافرات: وهي افتخار رجلين كل واحد منهما على الآخر بماله من مآثر واقعية يقربها الخصم نفسه ثم يحكما بينهما رجلاً شريفاً أو كاهناً يقضي بالحكم بينهما فإذا قضى الحكم بالغلبة لأحدهما فقد نظر صاحبه أي غلبه في هذه المنافسة .

٦-الحكم: وهو خلاصة التجارب الإنسانية تصب في قوالب نثرية لتكون قانوناً اجتماعياً أو فردياً يحتذى به ويسلك منهجه فهو فلسفة خاصة بالمرء الذي ينجها وحدة فهي تمثل تجربة من التجارب مختصرة للزمان موجزة مركزة سهلة الحفظ والتداول خالدة عبر الأجيال تختلف عن المثل .

٧-الأمثال: هي نثر فني مركز وخالصة تجربة إنسانية مرتبطة بقصة على عكس الحكمة التي لا ترتبط بقصة أدت إلى وجودها .

٨-الحكايات والقصص: مجموعة حوادث تقع لأشخاص او شخص تروى بشكل فني بطريقة شفوية والسرد غايتها الحكمة والاعتبار مضمونها متلون ومتنوع يصطبغ أسلوبها بأسلوب الحكواتي أو القاص تتحدث عن قصص الحيوان وقصص العشق والحكايات والرحلات والمشاهدات وأيام العرب و أخبار القبائل والملوك .

وغير ذلك مما سنقوم بالتعرض له ودراسته

حسين علي الهنداوي

أشكال خطاب النثر الفني الجاهلي



الباب الثالث

الحكم والأمثال

في العصر الجاهلي

أولاً- المثل في العصر الجاهلي :

أ- رؤيا المثل العربي الجاهلي :

يعد المثل العربي في العصر الجاهلي من أهم فنون النثر العربية على الإطلاق، لما يمتلكه من قدرة على رسم القضايا الاجتماعية والإنسانية وتصويرها بشكلها الواقعي الصحيح ، فقد كانت الأمثال الجاهلية صورة مطابقة للواقع الجاهلي ، وقد ذاعت الأمثال في العصر الجاهلي وانتشرت بشكل واسع ، فهي تتفق وعقلية العربي ونظرته فيما يدور حوله والمثل جزء من قولٍ أو قولٌ بذاته نُقل متواتراً من جيل إلى جيل دون تغيير ولا يخلو من الغموض أحياناً وقد أقبل كثير من العلماء على جمع الأمثال وشرحها وتبويبها وأشهرهم الميداني المتوفي سنة/٥١٨ هـ ، فقد جمع كتابه ((مجمع



الأمثال)) من نحو خمسين كتاباً ورتبه على حروف المعجم ومن خلال دراستنا لهذه الأمثال نرى أنها تعبر عن كثير من مظاهر الحياة في ذلك العهد وتصدر من طبقات الناس المختلفة كان أكثرها قوي العبارة صائب المعنى دقيق التشبيه يعتمد على البلاغة والإيجاز.. من هذه الأمثال أقوال قيلت في مناسبة من مناسبات الحياة فأصبحت مثلاً ومنها ما يرتبط بحادثة واقعية وإنما ارتبط بقصة خيالية أو حكاية رمزية على أسنة الحيوان والطيور صدرت في أكثر حالاتها عن نكاء ودقة ملاحظة ونفاذ بصيرة .. وذهب الباحثون إلى أن الأمثال تعكس عقلية الشعب وتعبر عن القيم التي يؤمن بها عبر التاريخ على ما فيها من تناقض في هذه القيم والمثل مرده إلى اختلاف البيئات وتفاوت المواقف والتجارب في الحياة.. وكان عرب الجاهلية قد خلفوا تراثاً كبيراً من الأمثال، وهي عبارات تضرب في حوادث مشبهة للحوادث الأصلية التي جاءت فيها، وقد عني علماء العصر العباسي بدراستها، وممن سبق إلى ذلك المفضل الضبي وأبو عبيدة، ثم خلف من بعدهما خلف أشهرهم أبو هلال العسكري في كتابه "جمهرة الأمثال"، والميداني في كتابه "مجمع الأمثال"، وهو يقول في مقدمته: إنه رجع في تأليفه إلى ما يربو على خمسين كتاباً. وقد درج من ألفوا في

الأمثال على أن يرتبونها حسب حروفها الأولى على نحو ما ترتب المعاجم ألفاظها، ولذلك نراهم يوزعونها عادة على تسعة وعشرين بابا بعدد أبواب الحروف الهجائية. ثم بعد هذا التوزيع يفسرونها، ويقصون أحيانا حوادثها التي جاءت فيها معتمدين -غالبا- على الظن والتخمين، مما جعل نيكسون يذهب إلى أن قيمة الأمثال محدودة بالنسبة إلى العصر الجاهلي . وحقا ما يذهب إليه، فقد طال العهد بين العصر الجاهلي، وعصر هؤلاء المفسرين، وإنه لينبغي أن ننثي على صنيعهم، ولكن مع شيء من الحذر في الأخذ بتفسيرهم وقصصهم، وما يحكونه من أخبار، ما دما نتهم القصص الجاهلي، وما نسب إلى عرب الجاهلية من أخبار وأحداث. ومعروف أن المثل لا يتغير، بل يجري كما جاء على الألسنة، وإن خالف النحو وقواعد التصريف ، (و إذا نظرنا إلى الأمثال العربية القديمة، وتدرجنا معها من المثل الطويل المسهب كمثل الخرافة، إلى الإشارة المثلية الموجزة، وجدنا أن أسلوبها المسهب أميل إلى التسوية والتلاصق، تكثر فيه الفواصل، والقفزات السريعة، والحروف العاطفة الخفيفة، كالواو والفاء ونحوهما، ولا يلجأ المثل إلى التركيب إلا في القليل، ولا يلجأ إلى أدوات الشرط والوصل وما شاكلها من الروابط "الثقال" إلا عند الضرورة القصوى.

ففي خرافة الحية والفأس نجد مثل هذه العبارة: "فعمد إلى الفأس، فأحدها، ثم قعد لها، فمرت به فتبعها، فضربها فأخطأها، ودخلت الجحر، ووقع الفأس بالجبل فوق جحرها فأثر فيه" ومعظم عبارات هذه الخرافة متلاصقة متكافئة سريعة القفزات. وفي الأمثال المركبة المؤلفة من جملتين أو أكثر نجد التسوية العطفية تسود كقولهم: "رب عجلة تهب ريثا، ورب فروقة يدعى ليثا، ورب غيث لم يكن عيثا" وقد لا يصطنع العطف، وربما استعملوا الجمل الحالية كقولهم: "أضرطا وأنت الأعلى" أو الجمل الشرطية كقولهم: "من عز بز) (الأمثال لعابدين ص ٩٩، ١٠٠). ، فتركيب الأمثال العربية الجاهلية إذا لا يخرجها عن سمة الإيجاز والتركيب، وإذا أنعمنا النظر في هذه الأمثال ألفينا ظاهرة لا مثيل لها في الأمثال السامية الأخرى؛ هذا الإيجاز البالغ الذي يصل أحيانا إلى أن يكون المثل لفظا واحدا أو صفة وموصوفا أو مضافا ومضافا إليه أو جارا ومجرورا. فمن أمثالهم: "أيها" ومعناه نعم، وأصلها: "أي ها الله" ثم كثر في كلامهم حتى وصلوا. ومن ذلك قولهم "اللهم" كان أصله - والله أعلم- يا الله أمنا بخير، ثم كثر حتى وصلوا الله بحرف من أمنا. ومن المضاف عدد من الأمثال أوردها الثعالبي في كتابه "ثمار القلوب في المضاف والمنسوب" كقولهم: غراب نوح، وذئب

يوسف، وعصا موسى، وخاتم سليمان، وبرد محارب، وعطر منشم، ومواعيد عرقوب، وجزاء سنمار... إلخ. وذكروا ما سموه "المكنى والمبني والمثنى" وهي أمثال أحصاها حمزة الأصفهاني فبلغت ثلاثمائة وسبعين، والمكنى والمبني من هذه الأمثال هما عبارة عن أسماء للأشخاص والأشياء والمعاني، أطلقها العرب عليها مبدوءة بأب أو أم أو بنت. ومن أمثال المثنى قولهم: الجديدان لليل والنهار، والأسودان للتمر والماء، والقمران للشمس والقمر. ومن أمثال المكنى قولهم: أبو الحارث كنية الأسد، وأبو حباب كنية النار التي لا ينتفع بها، وأم فروة كنية النعجة. ومن أمثال المبني قولهم: ابن جلا، وهو لأول النهار، وطامر بن طامر للبرغوث، وابن الأيام للرجل الجلد المجرب، وجابر بن حبة للخبز، وبنت الجبل للصدى، وبنت الشفة للكلمة. ولعل أمثال المكنى والمبني والمثنى هي من جملة الأمثال التي تدفقت على المثل العربي القديم بعد أن اشتدت حركة أئمة اللغة في جمع شواهد العرب وأساليبهم التقليدية من أهل البوادي العربية، وقد عد كثير من هذه الأساليب أمثالا، فافتحمت باب المثل باعتبارها كلاما مأثورا يعبر عن طرائق مألوفة في لغتهم (الأمثال لعابدين ١٠٥-١٠٧). وهذه الخصائص التي أسلفنا ذكرها تشمل الأمثال العربية جميعها ، ويعتبر كتاب

"أمثال العرب" للمفضل الضبي أقدم ما وصل إلينا من كتب الأمثال، وهو يعالج إلى حد ما أمثالا جاهلية، أو بعبارة أدق: أمثالا تصور في صياغتها وموضوعها نزعة جاهلية، ولما يعثر الباحث فيه على قصص وأمثال تشير إلى واقعة إسلامية. وهو يشتمل على حوالي مائة وخمسين مثلا موجزا، تندرج الكثرة الغالبة منها في قصص، ويبلغ عدد هذه القصص قرابة المائة، وتتضمن القصة مثلا أو أكثر. ويستغرق نصف صفحات كتاب الضبي تقريبا الحديث عن وقائع قصص وأمثال مستمدة من منطقة "تميم" بقبائلها المختلفة. وهناك عدد من القصص يروي ما كان بين اليمامة والمناذرة، وقصص عن امرئ القيس، وعدد من القصص يشير إلى أهل هجر "البحرين"، ومنه ما روى عن طرفة والمتملمس. وإذا تجاوزنا عددا من الأخبار ليس فيه إشارة واضحة إلى أسماء ووقائع معينة، وهذه لا تزيد على بضعة عشر خبرا، وجدنا عددا آخر يتحدث عن الغساسنة والحجازيين من سكان الجانب الغربي، وفي أخبار الغساسنة -وهي حوالي سبعة- إشارة إلى الخصومة التي نشبت بينهم وبين المناذرة، أو بين بعض عشائر قضاة. وظاهر أن هذه الأخبار مستمدة من مصادر شرقية أيضا؛ لأنها تسجيل لحوادث تهم المناذرة بنوع خاص، والأخبار الحجازية لا

تتجاوز الخمسة وأكثرها فكاها، ولبعضها صلة بأهل الحيرة والنزعات الدينية التي يهتمهم أن يعرفوها عن الحجاز. ومصدر هذه القصص إذاً هو الشرق، أو إذا أردنا التحديد فهو منطقة المناذرة وجهات القبائل التي تقع تحت سلطانهم. وطبيعي أن تكون عناية الضبي بأمثال نجد والمناذرة أكثر من عنايته بأمثال الحجازيين، فهو ينتمي إلى قبيلة "ضبة" إحدى قبائل المنطقة الشرقية، ويعتبر رأي المدرسة الكوفية الضبية. وليس بمستبعد أن يكون المناذرة أنفسهم قد أمروا بتدوين هذه الأمثال والأخبار وجمعها، ثم تداولها الرواة في الجاهلية حتى وصلت إلى الضبي في القرن الثاني للهجرة، فهي في مجموعها سجل لمفاخرهم وأحوالهم الأدبية والاجتماعية، ملوكاً ورعية.

ب- أقسام المثل العربي الجاهلي : قسم الباحثون المثل العربي إلى قسمين:

١- **المثل الشرقي :** وموطنه العراق والبحرين وعمان وحضرموت ونجد.

٢- **المثل الغربي :** وبيئته الحجاز واليمن.

ومهما يكن من شيء فمما لا شك فيه أن الحجازيين في العصر الجاهلي قد كانت لهم أمثال مثل ما كان لليمنيين والغساسنة،

والنجديين والمناذرة. ولكن يلاحظ أن أمثال الحجازيين واليمنيين والغساسنة أقل من أمثال النجديين والمناذرة، فما السر في هذا؟ وهل يمكن أن نتصور شعبا كشعب الحجاز - قد أعد لكي يؤثر في الحياة الإنسانية عامة، وكانت ميزته الكبرى التفوق في الفصاحة والبلاغة ولزعمائه الفصل في الخصومات بين العرب - لم يكن له حظ وافر من هذا التراث الضخم من الأمثال؟ إننا نعتقد أن بيئة الحجاز قد كانت عامرة بالأمثال، بيد أن الزمن قد عفى على كثير منها؛ لأنها لم تظفر من العناية والتسجيل والتدوين بما ظفرت به أمثال المناذرة والبقاع التي كانت تقع تحت نفوذهم، ولم تجد من السلطان القائم في تلك الأزمنة من يرعاها ويحميها ويحفظها من الضياع . وثم تراث ضخم من الأمثال العربية انبت عن أصله، ولم تعين بيئته، حجازية أم نجدية أم غيرهما، بأية وسيلة من الوسائل الكاشفة المميزة كاللهجة أو الحادثة أو القائل . ويجدر بنا أن نشير هنا إلى عدد من حكماء الحجاز في الجاهلية ، ومن هؤلاء: أمية بن عوف الكناني وكان من أتباع الحنيفية، يدعو إلى ترك الآلهة والتمسك بإله واحد، وكان يعظ العرب في فناء البيت، ومرعا بن الظرب العدواني، وهو حكيم قيس، وكان متصلا بملوك غسان، وهاشم بن عبد مناف، وعبد المطلب، وأبو طالب من حكماء

قريش. وكان بعض الحكماء يورثون أبناءهم الحكمة، كما صنع حكماء الشرق القديم، حين كانوا يلقتون أولادهم تعاليم الحكمة، فورثت ابنة عامر بن الظرب الحكمة من أبيها، وكانت ذرية هاشم بن عبد مناف حكماء قريش في الجاهلية، ونعني هشاما وعبد المطلب وأبا طالب، أما في الإسلام فقد اشتهر بها علي بن أبي طالب، وعمرو بن العاص كما عرف بها أبوه العاص بن وائل في الجاهلية. وأمثال الحجاز في الجاهلية كانت -بوجه عام- تستقي من طابع الحجاز المحلي، وارتسمت عليها صورة بيئتهم وعبرت عن طرائقهم في التفكير والتعبير، أو اقترنت بحادثة كاشفة أو لهجة مميزة أو تفوه بها زعيم من زعمائهم أو فصيح من فصحاءهم. ومن التي قيلت في بيئة المناذرة والمناطق التي كانت تدور في فلكها كنجد وهجر والبحرين، ثم انتقلت إلى الحجاز وشاعت في بيئتهم الاجتماعية ودارت على ألسنتهم واختلطت بأمثالهم الصميمة، وتناولوها بالتغيير والتحوير حتى تنسق مع ميولهم ونزعاتهم ولهجاتهم، وقد أصبحت هذه الأمثال جزءا من تراثهم الفني. كذلك من الكتب التي لها الرواج في منطقة الحجاز وكان مصدرها كتابيا تعليميا، ودلت الدلائل على أنها مستقاة من تعاليم قديمة، أو كتب مقدمة، ثم أخذت صيغة الأمثال الشعبية،

فقد كانت هناك جاليات آرامية وغير آرامية استقر بعضها في مناطق عدة من الحجاز في أخصب البقاع حول المدينة المنورة ، وأمرع الواحات بين الحجاز والشام وذاعت في تلك المناطق قصص من التوراة وغير التوراة. وكان من أثر التيارات والدعوات الكتابية أن ضعف إلى حد ما نفوذ الوثنية، وذاعت بعض الأفكار السماوية والتعاليم الدينية ... وكان بعضها في صورة حكم وأمثال .

ج-أثر البيئة الجاهلية في الأمثال العربية:

تعتبر الأمثال أصدق شيء يتحدث عن أخلاق الأمة وتفكيرها وعقليتها وتقاليدها وعاداتها، ويصور المجتمع وحياته وشعوره أتم تصوير، فهي مرآة للحياة الاجتماعية والعقلية والسياسية والدينية واللغوية، وهي أقوى دلالة من الشعر في ذلك؛ لأنه لغة طائفة ممتازة، وأما هي فلغة جميع الطبقات. فالمثل -إذا- هو صوت الناس وصورته ، ينبع من قلوبهم ، ويصب فيها ولذا كان من الطبيعي أن تكون الأمثال العربية في العصر الجاهلي صورة صادقة لنفسية العرب وحياتهم ، وأن تنعكس على مرآتها بينتهم الطبيعية والاجتماعية، وتصور عاداتهم وتقاليدهم ونزعاتهم وميولهم وهزلهم وجدهم، وطرائقهم في التفكير والتعبير. وماذا عسى أن ينتج من بيئات اشتغل أهلها بالرعي والزراعة والتجارة،



وكانت لهم المصارف، وضربوا في جنبات الصحراء يحدون القوافل الموقرة بالسلع المختلفة لحسابهم، أو لحساب غيرهم، حتى أصبح لهم حظ من الثراء والترف والحضارة، وكانت بديارهم المواسم والمجتمعات والأسواق التجارية والأدبية، كما امتازوا بجوارهم للبيت الحرام الذي يقصده العرب جميعا لأداء الشعائر الدينية؟ كل ذلك كان له أثره العميق في نفوسهم، وفيما ينتجون من أدب بصفة عامة، وما يرسلون من حكم وأمثال بصفة خاصة. وهكذا كانت الأمثال الجاهلية التي وصلت إلينا ترجمانا صادقا عن حياتهم الاجتماعية، وشمائلهم الخلقية؛ نرى فيها شجاعتهم وبأسهم، وجرأتهم وفتكهم،

د- من أمثال العرب الجاهليين :

فقد ضرب المثل بالبراض الكناني، فقيل: أفتك من البراض، وفي قصة المثل المشهور: "عند جهينة الخبر اليقين" بعد أن فتك الأخنس بن كعب الجهني بالحصين بن عمرو، وقفل راجعا إلى قومه رأى امرأة تنشد الحصين، فقال لها: من أنت؟ فقالت: أنا امرأة الحصين. قال: أنا قتلته، فكذبتة وقالت: أما لو لم يكن الحي خلوا ما تكلمت بهذا. فانصرف وفي ذلك يقول:

كصخرة إذ تسائل في مراح ... وأنمار، وعلمهما ظنون

تسائل عن حصين كل ركب ... وعند جهينة الخبر اليقين
وفي بيئات الحجاز الزراعية كخيبر والمدينة حيث تنتشر النخيل
نجد أن الحجازيين قد اتخذوا من "التمر" مادة للأمثال يعالجون بها
أطرافاً من شئونهم المعاشية وحياتهم الاجتماعية، فقالوا:
"كاستبضع التمر إلى خيبر" ويقال للدلالة على خطأ هذا الفعل،
فخيبر مصدر التمر، والذي يجلب إليها التمر مخطئاً أعظم الخطأ
مقضي على تجارته بالبوار والكساد وهذا من بديهيات التجارة،
والشيء يجب أن يوضع في موضعه، ويوجه لمن هو في حاجة
إليه، قال النابغة الجعدي:

وإن امرأ أهدى إليك قصيدة ... كاستبضع تمرا إلى أرض خيبر
وقالوا: "كل خاطب على لسانه تمرة" (الميداني ٢ / ٩٨). وفي
التمرة حلاوة، والخاطب عادة يحلو لسانه حتى يحوز الرضا ويفوز
بحبة قلبه، وهو يضرب للذي يلين كلامه إذا طلب حاجة. وقالوا:
"التمرة إلى التمرة تمر" وينسب هذا المثل إلى أحيحة بن الجلاح
الأوسي، وذلك أنه دخل حائطا له فرأى تمرة ساقطة فتناولها،
فغوتب في ذلك، فقال ذلك القول يريد أن ضم الآحاد يؤدي إلى
الجمع، ويضرب في استصلاح المال. وكان من عاداتهم في
الجاهلية أن يقوم منادٍ على أطم من آطام المدينة حين يدرك

البسر، فينادي: "التمر في البئر ... التمر في البئر" يحثهم على أن يكثرُوا من سقي نخلهم، فإن من سقى وجد عاقبة سقيه في تمره، وهذا قريب من قولهم: "عند الصباح يحمد القوم السرى"، ويراد بالمثلين: أن من عمل عملاً كان له ثمرته (الميداني ١ / ١٤٤، وجمهرة الأمثال ١ / ١٨٥). وفي بيئات الحجاز التجارية كمكة مثلاً، يجد الباحث أمثالا تصور حياتهم الاقتصادية كقولهم: أقرش من المجبرين: والقرش: الجمع والتجارة، والتقرش: التجمع، ومن هذا سميت قريش قريشا. زعم أبو عبيدة أنهم أربعة رجال من قريش وهم أولاد عبد مناف بن قصي؛ أولهم هاشم ثم عبد شمس ثم نوفل ثم المطلب بنو عبد مناف، سادوا بعد أبيهم. لم يسقط لهم نجم، جبر الله تعالى بهم قريشا فسموا المجبرين؛ وذلك أنهم وفدوا على الملوك بتجاراتهم فأخذوا منهم لقريش العصم، أخذ لهم هاشم حبلا من ملوك الشام حتى اختلفوا بذلك السبب إلى أرض الشام وأطراف الروم، وأخذ لهم عبد شمس حبلا من النجاشي الأكبر حتى اختلفوا بذلك السبب إلى أرض الحبشة، وأخذ لهم نوفل حبلا من ملوك الفرس حتى اختلفوا بذلك السبب إلى أرض فارس والعراق، وأخذ لهم المطلب حبلا من حمير حتى اختلفوا بذلك السبب إلى بلاد اليمن (الميداني ٢ / ٧٢)، وانعكست على أمثالهم كذلك صور

من عاداتهم الدينية وبيئتهم المقدسة، فقالوا: "آمن من حمام مكة" و"آمن من الظبي بالحرم" وهما من الآمن، وقالوا: "آلف من حمام مكة" لأنه لا يثار ولا يصاد، وقالوا: "أصح من عير أبي سيارة" وهو رجل من بني عدوان اسمه: عميلة بن خالد بن الأعزل، وكان له حمار أسود أجاز الناس عليه من المزدلفة إلى منى أربعين سنة، وكان يقول: أشرق ثبير كيما نغير، وهو أول من سن الدية مائة من الإبل (الميداني ١ / ٤٢٢، وجمهرة الأمثال للعسكري ٢ / ١٢٨). وفي مكة تبرز أمثال تصور مبلغ ما وصل إليه بعض القرشيين من الثراء والترف كقولهم: أقرى من حاسي الذهب: وحاسي الذهب هو عبد الله بن جدعان التيمي سيد مكة في الجاهلية. وسمي بذلك؛ لأنه كان يشرب في إناء من الذهب، وهو الذي أطعم العرب الفالوذ، وفيه قال أبو الصلت الثقفي:

له داع بمكة مشمعل ... وآخر فوق دارته ينادي
إلى ربح من الشيزى ملاء ... لباب البر يلبك بالشهاد
ونجد أمثالا أخرى تصور جودهم وسخاءهم كقولهم:

أقرى من زاد الركب: وهذا المثل من أمثال قريش، ضربوه لثلاثة من أجوادهم: مسافر بن أبي عمرو بن أمية، وأبي أمية بن المغيرة، وأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى. سموا زاد

الركب؛ لأنهم كانوا إذا سافروا مع قوم لم يتزودوا معهم، وقد ذكرنا نبأهم فيما سبق. ومن أمثال المكيين التي تحكي اعتزازهم وتفآخرهم قولهم: أنا ابن كديها وكدائها: وكدى وكداء جبلان بمكة والهاء راجعة إلى مكة، وهذا مثل يضربه من أراد الافتخار على غيره. ومن أمثالهم التي تصور جمالهم ووسامتهم قولهم: أجمل من ذي العمامة: وهو مثل من أمثال مكة، وذو العمامة سعيد بن العاص بن أمية، وكان في الجاهلية إذا لبس عمامة، لا يلبس قرشي عمامة على لونها، وإذا خرج لم تبق امرأة إلا برزت للنظر إليه من جماله (الميداني ٢ / ١٩٨). ومن الأمثال العربية قولهم: كُسَيْرٌ وَعُوَيْرٌ، وكل غير خير (الأغاني ١ / ٢٩٣، دار الكتب). ولا يزال الحجازيون حتى اليوم يذكرون معنى هذا المثل بعد أن حولوه إلى اللهجة العامية، فيقولون: "صوير وعوير، وإلا ما فيه خير". ومن الأمثال الحجازية الشعبية قولهم: "شاهد الثعلب ذنبه" وقد جاء هذا المثل في خبر لأبي بكر الصديق -رضي الله عنه (جمهرة الأمثال للعسكري ٢ / ١٨). وسار عبر القرون حتى العهد الحاضر، فإذا هو يدور على ألسنة الحجازيين على النحو الآتي: "قاللوا: مين يشهد لك يا أبو الحصين؟ قاللوا: ذنبي" وأبو الحصين -كما هو معروف- كنية الثعلب. أما حكمهم وأمثالهم التي تجلت

فيها قدرتهم الفائقة على فن التعبير، وبرزت فيها سمات الوجازة والبلاغة الممتازة حتى دارت على الألسنة وتأثرت بها القلوب، فحسبنا أن نشير إلى قولهم: "الحرب سجال"، و" لا في العير ولا في النفير"، و" كل الصيد في جوف الفراء"، و"السليم لا ينام ولا ينيماً"، و" رب زارع لنفسه حاصد سواه". وقد يصور المثل الحجازي حادثة أو شخصية جاهلية كقولهم: "أندم من أبي غبشان" وهو من خزاعة. يروى أنه أسلم قصي بن كلاب مفاتيح البيت الحرام وهو سكران، فطار بها من الطائف "وهو موضع اجتماعهم" إلى مكة، وقال: معاشر قريش! هذه مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل، ردها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم، وأفاق أبو غبشان فندم، فقيل: أندم من أبي غبشان. هذا وقد سجل الأستاذ أحمد السباعي في كتابه "تاريخ مكة" قد سجل جملة من الحكم والأمثال عزاها إلى قريش في العصر الجاهلي. كالمثل: "عند الصباح يحمد القوم السرى (الميداني ١ / ٤٦٤)، فقد تفوه به خالد بن الوليد حين نجا هو وجيشه من الهلاك عطشا، بعد أن سلك المفازة بين اليمامة والعراق وفي الكامل لابن الأثير: بين الشام والعراق. بناء على أمر الخليفة أبي بكر -رضي الله عنه- له بأن يتجه إلى العراق. وبعضها مولد كقولهم: "يبني قصرا ويهدم مصرا" (الميداني ٢ /

(٣٩٣) ، ويضرب لمن شره أكثر من خيره، وقد ذكره الميداني في أمثال المولدين، وقولهم: "إذا أراد الله هلاك نملة أنبت لها جناحين". وبعضها ليس قرشياً كالمثل: "حسبك من شر سماعه"، فقد نسبته الميداني لأم الربيع بن زياد العبسي، ونسبه المفضل لفاطمة بنت الخرشب من بني أنمار بن بغيض. وكقولهم: "مكره أخوك لا بطل". روى الضبي: "أخوك" على الإعراب بالحروف، ثم نجدها في لهجات بعض المناطق الغربية: "مكره أخاك لا بطل" بالبناء على الألف. وورد في الضبي المثل: "إذا عز أخوك فهن" فإذا به يروى: "إذا عز أخاك فهن" ولكن الجاحظ يعده لحنا. ثم نلمح السمة الحجازية أحيانا في الأمثال، حين يختلف الرواة في شرح قصصها ومواردها، فيردونها إلى مصادر مختلفة، ففي شرح المثل القائل: "حدا حدا وراءك بندقة" يرى شرق بن القطامي الكوفي أن "حدا" علم على قبيلة، هي حدا بن نمرة بن سعد العشيرة، وهم بالكوفة، وبندقة من مظة، وهو سفيان بن سلهم بن الحكم بن سعد العشيرة وهو باليمن. أغارت حدا على بندقة فقتلت منهم، أما أبو عبيدة البصري، فيرى أن المراد هو هذا الحدأ الذي يطير، والبندقة ما يرمى به، وهي كرة تطلق من السهم يلعب بها الصبيان، وهو مثل يضرب في التحذير. فعلى قول أبي عبيدة

يكون اللفظ جمع حدأة أسقطوا همزته. وفي اللسان: "العامة تقول: حدا حدا بالفتح غير مهموز" فالأقرب أن يكون المثل متأثراً بلهجة غريبة أو هو غربي المورد، فإن حذف الهمزة في نحو "حدا" هو ظاهرة مميزة للهجات الحجازية على أنه قد يصعب الاهتداء إلى مصدر المثل في كثير من الأحيان، كما في شرح: "أنا النذير العريان"، فقد أورد ابن الكلبي قصة وقعت حوادثها في الحيرة في أيام المنذر بن ماء السماء. أما ابن سلمة فيشرح المثل بما يدل على أن مصدره حجازي، إذ ينسبه إلى رجل من خثعم، حمل عليه يوم ذي الخلفة. ومن الأمثال التي يبدو الأثر الأجنبي في صيغتها قولهم: "إلا ده فلا ده" وهو كلمة قالها الكاهن عزي سلمة حين أتاه جماعة من ثقيف، ومعهم عبد المطلب بن هاشم فخبئوا له، وقالوا: "لاده" أي: بين هذا الشيء، فأجابهم الكاهن بكلام مبهم، فقالوا له: "لاده" قال لهم: "إن لاده فلا ده" هو رأس جرادة في خرز مزادة ... إلخ. قال الخليل بن أحمد: "لاده" فارسية الأرض، ورده أبو عبيدة إلى أصل عربي قال: "أريد كذا وكذا، فإن قيل له: ليس يمكن ذا، قال: فكذا وكذا". وقال الأصمعي: إن معناه: إن لم يكن هذا الآن، فلا يكون بعد الآن. وقال المنذري: "قالوا: معناه: إلا هذه، فلا هذه، يعني أن الأصل إلا ذه فلا ذه، بالذال المعجمة". وبالرغم من أن

حوادث القصة حجازية، فإن المثل فيما نظن عبارة مأثورة من تلك المصطلحات العتيقة التي تتسرب عادة إلى أهل الحرفة من عصور بعيدة الآماد. ويرجح بعض الباحثين أن العبارة متأثرة بلهجة آرامية أو فارسية، وأنها جاءت من جهة العراق. ولا ننسى طائفة أخرى من الأمثال هي خرافات شعبية، نشأت وترعرعت في أوساط كتابية غالباً في الفترة التي ظهر فيها الإسلام أو بعده بقليل. وهناك نوع من قصص الخلق نجدها منتشرة في الأوساط الكتابية، يذيعها المعلمون والوعاظ لبيان حكمة الخالق في خلقه، وهناك عدد من قصص الخلق ذاعت في الكتب المقدسة القديمة، وقد نجح صانعو هذا القصص في صياغتها بعبارات شعبية. قالوا: زعمت الأعراب أن النعامة ذهبت تطلب قرنين، فرجعت بلا أذنين؛ فذلك يسمون ذكر النعام الظليم، ومن أمثالهم: "كطالب القرن جدعت أذنه" ويروى أن بشاراً تمثل فقال: "ذهب الحمار يطلب قرنين فعاد بلا أذنين". وورد المثل في شعر بعض الهذليين المخضرمين، وهو أبو العيال الهذلي، والهذليون مساكنهم في الحجاز، وهو يشير إلى النعامة لا إلى الحمار. وهناك مثل آرامي يهودي يقول: "ذهب الجمل يطلب قرنين فرجع بلا أذنين" وبذلك يتبادل الدور ثلاثة من الحيوان، ويبدو أن الجمل أقدمها وروداً في المثل، وقد اختلطت

الأمثال اليمنية بالأمثال الحجازية، فقد لبست جميعها ثوبا من العربية الفصحى وفي أمثالهم: "من دخل ظفار حمر، أو تحمر" وظفار بلد باليمن، وحمر: تكلم بالحميرية. وقالوا: "روغي جعار وانظري أين المفر" جعار الضبع، وهو مثل يضرب للذي يهرب ولا يقدر أن يغلب صاحبه. وقالوا: "تيسي جعار" يضرب للاستكذاب ولم يعرف أصل هذه الكلمة، والتيس جبل باليمن. ويقال: فلان يتكلم بالتيسية أي: بكلام أهل ذلك الجبل (والمزهر: ١ / ٤٩، والأمثال لعابدين ٦٥، ٦٦). وفي الحجاز يصادف الباحث عددا من الأمثال يتسم بسمة الإغراب، ويستغلق معناه في الفهم. وروي أن عمر بن الخطاب جاءه رجل يحمل لقيطا، فقال عمر: "عسى الغوير أبؤسا" والغوير: تصغير غار، والأبؤس: الشدائد جمع بؤس، أي: لعلك. صاحب هذا اللقيط، تعريضا بالرجل، وقال اللغويون في معناه: "عل الغوير يصير أبؤسا" وقالوا: عسى بمعنى كان ومن الأمثال العربية: أفئك من البراض : هو البراض بن قيس الكناني. ومن خبر فتكه: أنه كان وهو في حيه عيارا فاتكا يجني الجنائيات على أهله، فخلعه قومه، وتبرؤوا من صنيعه، ففرقهم وقدم مكة، فحالف حرب بن أمية ثم نبا به المقام بمكة أيضا ففارق أرض الحجاز إلى أرض العراق، وقدم على النعمان بن المنذر الملك فأقام

ببابه. وكان النعمان يبعث إلى عكاظ بلطيمة كل عام تباع له هناك، فقال وعنده البراض والرحال -وهو عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب، وسمي رحالا لأنه كان وفادا على الملوك: من يجيز لي لطيمتي هذه حتى يقدمها عكاظ؟ فقال البراض: أبيت اللعن أنا أجيئها على كنانة، فقال النعمان: ما أريد إلا رجلا يجيئها على الحيين قيس وكنانة. فقال عروة الرحال: أبيت اللعن، أهذا العيار الخليع يكمل لأن يجيز لطيمة الملك، أنا المجيئها على أهل الشيخ والقيصوم من نجد وتهامة. فقال: خذها، فرحل عروة بها، وتبع البراض أثره، حتى إذا صار عروة بين ظهراي قومه بجانب فدك، نزلت العير فأخرج البراض قدحا يستقسم بها في قتل عروة، فمر عروة به، وقال: ما الذي تصنع يا براض؟ قال: أستخير القداح في قتلي إياك، فقال: "استك أضيق من ذاك"، فوثب البراض بسيفه إليه فضربه ضربة خمد منها، واستاق العير، فبسببه هاجت حرب الفجار بين حيي خندف وقيس، فهذه فتكة البراض التي بها المثل قد سار، وقال فيها بعض شعراء الإسلام:

والفتى من تعرفته الليالي ... والفيافي كالحية النضناض

كل يوم له بصرف الليالي ... فتكة مثل فتكة البراض

ومن الأمثال : إن العصا قرعت لذي الحلم: وقيل: إن أول من قرعت له العصا عمرو بن مالك بن ضبيعة، أخو سعد بن مالك الكناني، وذلك أن سعدا أتى النعمان بن المنذر ومعه خيل له قادها وأخرى عراها، ف قيل له: لم عريت هذه وقدت هذه؟ قال: لم أقد هذه لأمنعها، ولم أعر هذه لأهبها، ثم دخل على النعمان فسأله عن أرضه، فقال: أما مطرها فغزير وأما نبتها فكثير. فقال النعمان: إنك لقوال، وإن شئت أتيتك بما تعيا عن جوابه. قال: نعم. فأمر وصيفا له أن يلطمه، فلطمه لطمه. فقال: ما جواب هذه؟ قال: رب يؤدب عبده. قال: الطمه أخرى، فلطمه. قال: ما جواب هذه؟ قال: ملكت فأسجح، فأرسلها مثلا. قال النعمان: أصبت فامكث عندي، وأعجبه ما رأى منه فمكث عنده ما مكث. ثم إنه بدا للنعمان أن يبعث رائدا فبعث عمرا أخا سعد، فأبطأ عليه فأغضبه ذلك، فأقسم: لئن جاء ذاما للكلا أو حامدا له ليقتلنه، فقدم عمرو وكان سعد عند الملك، فقال سعد: أتأذن أن أكلمه؟ قال: إذن يقطع لسانك. قال: فأشير إليه؟ قال: إذن تقطع يدك، قال: فأقرع له العصا؟ قال: فأقرعها، فتناول سعد عصا جليسه وقرع بعصاه قرعة واحدة فعرف أنه يقول له: مكانك، ثم قرع بالعصا ثلاث قرعات، ثم رفعها إلى السماء ومسح عصاه بالأرض، فعرف أنه يقول له: لم أجد جدبا، ثم قرع

العصا مرارا ثم رفعها شيئا وأوماً إلى الأرض فعرف أنه يقول: ولا نباتا، ثم قرع العصا قرعة وأقبل نحو الملك فعرف أنه يقول كلمة، فأقبل عمرو حتى قام بين يدي الملك، فقال له: أخبرني هل حمدت خصبا أو ذممت جدبا؟ فقال عمرو: لم أذمم هزلا ولم أحمد بطلا، الأرض مشكلة، لا خصبها يعرف، ولا جذبها يوصف، رائدها واقف ومنكرها عارف وآمنها خائف. قال الملك: أولى لك، فقال سعد بن مالك يذكر قرع العصا:

قرعت العصا حتى تبين صاحبي... ولم تك لولا ذاك في القوم تفرع
فقال رأيت الأرض ليس بممحل .. ولا سارح فيها على الرعي يشبع
سواء فلا جذب فيعرف جذبها ... ولا صابها غيث غزير فتمرع
فنجي بها حوباء نفس كريمة ... وقد عاد لولا ذاك فيهم تقطع
وقال آخرون في قولهم "إن العصا قرعت لذي الحلم": إن ذا الحلم
هذا هو عامر بن الظرب العدواني، وكان من حكماء العرب لا تعدل
بفهمه فهما ولا بحكمه حكما، فلما طعن في السن أنكرت من عقله
شيئا، فقال لبنيه: إنه قد كبرت سني وعرض لي سهو، فإذا
رأيتموني خرجت من كلامي وأخذت في غيره فاقرعوا لي المجن
بالعصا. وقيل: كانت له جارية يقال لها: خصيلة، فقال لها: إذا أنا
خُولِطت فاقرعي لي العصا، وأتى عامر بخنثى ليحكم فيه فلم يدر

ما الحكم، فجعل ينحر لهم ويطعمهم ويدافعهم بالقضاء، فقالت خصيصة: ما شأنك قد أتلفت مالك؟ فخيرها أنه لا يدري ما حكم الخنثى، فقالت: اتبعه مباله، قال الشعبي: فحدثني ابن عباس بها، قال: فلما جاء الإسلام صارت سنة فيه، وعامر هو الذي يقول:

أرى شعرات على حاجبي ... بيضا نبتن جميعا توأما

ظللت أهاهي بهن الكلا ... ب أحسبهن صوارا قياما

وأحسب أنني إذا ما مشيت ... ت شخصا أمامي رأني فقاما

ومن الأمثال الجاهلية (عند جهينة الخبر اليقين) وخبره أنه: خرج حصين بن عمرو بن معاوية بن كلاب ومعه رجل من جهينة يقال له: الأخنس بن كعب، وكان الأخنس قد أحدث في قومه حدثا فخرج هاربا فلقى الحصين، فقال له: من أنت، ثكلتك أمك؟ فقال له الأخنس: بل من أنت، ثكلتك أمك؟ فردد هذا القول، حتى قال الأخنس: أنا الأخنس بن كعب فأخبرني من أنت وإلا أنفذت قلبك بهذا السنان، فقال له الحصين: أنا الحصين بن عمرو الكلابي. ويقال: بل هو الحصين بن سبيع الغطفاني، فقال له الأخنس: فما الذي تريد؟ قال: خرجت لما يخرج له الفتيان. قال الأخنس: وأنا خرجت لمثل ذلك، فقال له الحصين: هل لك أن نتعاقد ألا نلقى أحدا من عشيرتك أو عشيرتي إلا سلبناه؟ قال: نعم، فتعاقدا على

ذلك وكلاهما فاتك يحذر صاحبه، فلقيا رجلا فسلباه فقال لهما: هل
لكما أن تردا علي بعض ما أخذتما مني وأدلكما على مغنم؟ قالوا:
نعم، فقال: هذا رجل من لخم قد قدم من عند بعض الملوك بمغنم
كثير وهو خلفي في موضع كذا وكذا، فردا عليه بعض ماله وطلبا
اللخمي فوجداه نازلا في ظل شجرة وقدامه طعام وشراب، فحيّاه
وحياهما وعرض عليهما الطعام فكره كل واحد أن ينزل قبل صاحبه
فيفتك به، فنزلا جميعا فأكلا وشربا مع اللخمي، ثم إن الأخنس
ذهب لبعض شأنه فرجع واللخمي يتشحط في دمه، فقام الجهني
وهو الأخنس وسل سيفه؛ لأن سيف صاحبه كان مسلولا وقال:
ويحك، فتكت برجل قد تحرمتنا بطعامه وشرابه. فقال: يا أخا جهينة،
أتدري ما صعلة وما صعل؟ قال الجهني: هذا يوم شرب وأكل،
فسكت الحصين حتى إذا ظن أن الجهني قد نسي ما يراد به قال:
يا أخا جهينة هل أنت للطير زاجر؟ قال: وما ذاك؟ قال: ما تقول
هذه العقاب الكاسر؟ قال الجهني: وأين تراها؟ قال: هي ذه،
وتطاول ورفع رأسه إلى السماء فوضع الجهني بادرة السيف في
نحره فقال: أنا الزاجر والناصر، واحتوى على متاعه ومتاع اللخمي
وانصرف راجعا إلى قومه، فمر ببطنين من قيس يقال لهما: مراح
وأنمار، فإذا هو بامرأة تنشد الحصين بن سبيع، فقال لها: من

أنت؟ قالت: أنا صخرة امرأة الحصين، قال: أنا قتلته. فقالت: كذبت ما مثلك يقتل مثله؟ أما لو لم يكن الحي خلوا ما تكلمت بهذا، فانصرف إلى قومه فأصلح أمرهم، ثم جاءهم فوقف حيث يسمعهم وقال:

وكم من ضيغم ورد هموس ... أبي شبليين مسكنه العرين
 علوت بياض مفرقه بعضب ... فأضحى في الفلاة له سكون
 وأضحت عرسه ولها عليه ... بعيد هدوء ليلتها رنين
 وكم من فارس لا تزدرية ... إذا شخصت لموقعه العيون
 كصخرة إذ تسائل في مراح ... وأنمار وعلمهما ظنون
 تسائل عن حصين كل ركب ... وعند جهينة الخبر اليقين
 فمن يك سائلا عنه فعندي ... لصاحبه البيان المستبين
 جهينة معشري وهم ملوك ... إذا طلبوا المعالي لم يهونوا
 ويضرب هذا المثل في الرجل يعرف حقيقة الأمر.

ومن الأمثال (رب زارع لنفسه حاصد سواه) : قاله عامر بن الظرب وذلك أنه خطب إليه صعصعة بن معاوية ابنته، فقال: يا صعصعة، إنك جئت تشتري مني كبدي وأرحم ولدي عندي، منعك أو بعثك، النكاح خير من الأيمة والحسيب كفاء الحسيب والزوج الصالح يعد أبا، وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك، ثم أقبل على

قومه فقال: يا معشر عدوان، أخرجت من بين أظهركم كريمتكم على غير رغبة عنكم، ولكن من خط له شيء جاءه، رب زارع لنفسه حاصد سواه. ولولا قسم الحظوظ على غير الحدود ما أدرك الآخر من الأول شيئا يعيش به، ولكن الذي أرسل الحيا أنبت المرعى، ثم قسمه أكلا لكل فم بقلة ومن الماء جرعة، إنكم ترون ولا تعلمون، لن يرى ما أصف لكم إلا كل ذي قلب واعٍ وكل شيء راعٍ وكل رزق ساعٍ، إما أكيس وإما أحمق وما رأيت شيئا قط إلا سمعت حسه ووجدت مسه، وما رأيت موضوعا إلا مصنوعا، وما رأيت جائيا إلا داعيا ولا غانما إلا خائبا ولا نعمة إلا ومعها بؤس، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء، فهل لكم في العلم العليم؟ قيل: ما هو؟ قد قلت فأصبت وأخبرت فصدقت. فقال: أمورا شتى وشيئا شيا حتى يرجع الميت حيا ويعود لا شيء شيا؛ ولذلك خلقت الأرض والسماء، فولوا عنه راجعين، فقال: ويلها نصيحة لو كان من يقبلها. ؛ ومن الأمثال (كل شاة برجلها معلقة) : قاله وكيع بن سلمة بن زهير بن إياد وكان ولي أمر البيت بعد جرحهم، فبنى صرحا بأسفل مكة ، وجعل فيه أمة يقال لها: حزورة، وبها سميت حزورة مكة، وجعل في الصرح سلما فكان يرقاه ويزعم أنه يناجي الله تعالى، وكان ينطق بكثير من الخبر، وكان علماء العرب

يزعمون أنه صديق من الصديقين، وكان من قوله: مرضعة أو فاطمة ووادعة وقاصمة والقطيعة والفجيعة وصلة الرحم وحسن الكلم. ومن كلامه: (زعم ربكم ليجزين بالخير ثوابا وبالشر عقابا، إن من في الأرض عبيد لمن في السماء، هلكت جرهم وربلت إياد، وكذلك الصلاح والفساد) . فلما حضرته الوفاة جمع إيادا فقال لهم: اسمعوا وصيتي: الكلم كلمتان والأمر بعد البيان، من رشد فاتبعوه ومن غوى فافضوه، وكل شاة برجلها معلقة، فأرسلها مثلا. ومن ذلك (صكة عمي) : يقال: لقيته صكة عمي وصكة أعمى وهو أشد الهاجرة حرا، وعمي تصغير أعمى مرخما، قال اللحياني: هي أشد ما يكون من الحر أي: حين كان الحر يعمي من شدته، وقال الفراء: حين يقوم قائم الظهيرة. وعمي رجل من عدوان كان يفتي في الحج، فأقبل معتمرا ومعه ركب حتى نزلوا بعض المنازل في يوم شديد الحر، فقال عمي: من جاءت عليه هذه الساعة من غد وهو حرام بقي حراما إلى قابل، فوثب الناس إلى الظهيرة يضربون أي: يسIRON حتى وافوا البيت، وبينهم وبينه من ذلك الموضع ليلتان ، فضرب مثلا فقليل: أتانا صكة عمي، إذا جاء في الهاجرة الحارة، وفي ذلك يقول كرب بن جبلة العدواني:

وصك بها نحر الظهيرة غائرا ... عمي ولم ينعلن إلا ظلالها

وجئن على ذات الصفاح كأنها ... نعام تبغي بالشظى رئالها
 فطوفن بالببيت الحرام وقضيت ... مناسكها ولم يحل عقالها
 ومن الأمثال (قد كان ذلك مرة، فاليوم لا) : قالته فاطمة بنت مر
 الخثعمية وكانت قد قرأت الكتب، فأقبل عبد المطلب ومعه ابنه عبد
 الله يريد أن يزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن
 كلاب، فمر على فاطمة وهي بمكة المكرمة ، فرأت النبوة في وجه
 عبد الله، فقالت له: من أنت يا فتى؟ فقال: أنا عبد الله بن عبد
 المطلب بن هاشم، فقالت: هل لك أن تقع علي وأعطيك مائة من
 الإبل؟ فقال:

أما الحرام فالممات دونه ... والحل لا حل فأستبينه
 فكيف بالأمر الذي تنوينه ... يحمي الكريم عرضه ودينه
 ومضى مع أبيه فزوجه آمنة وظل عندها يومه وليلته، فاشتملت
 بالنبي -صلى الله عليه وسلم- ثم انصرف وقد دعت نفسه إلى
 الإبل فأتاهم فلم ير منها حرصا، فقال لها: هل لك فيما قلت لي؟
 فقالت: قد كان ذلك مرة، فاليوم لا. فأرسلت مثلا يضرب في الندم
 والإبانة بعد الاجترام، ثم قالت له: أي شيء صنعت بعدي؟ قال:
 زوجني أبي آمنة بنت وهب فكنت عندها، فقالت: رأيت في وجهك

نور النبوة فأردت أن يكون ذلك في، فأبى الله تعالى إلا أن يضعه
حيث أحب، وقالت:

بني هاشم قد غادرت من أخيكم ... أمينة إذ للباه يعتلجان
وما كل ما نال الفتى من نصيبه ... بحزم ولا ما فاته بتواني
فأجمل إذا طالبت أمرا فإنه ... سيكفيكه جدان يصطرعان
وقالت في ذلك أيضا:

إني رأيت مخيلة نشأت ... فتلاأت بحناتم القطر
لله ما زهرية سلبت ... ثوبيك ما استلبت وما تدري
ومن الأمثال الجاهلية (أي الرجال المهذب؟) أول من قاله
النابغة، حيث قال:

ولست بمستبق أخوا لا تلمه ... على شعت أي الرجال المهذب
وكذلك (لقد استبطنتم بأشهب بازل) قاله العباس بن عبد المطلب
-رضي الله عنه- لأهل مكة، أي: بليتيم بأمر صعب مشهور
كالبعير الأشهب البازل، وهو الأبيض القوي، والباء في "أشهب"
زائدة، يقال: استبطنت الشيء، إذا أخفيت.

ومن الأمثال : (لا قرار على زار من الأسد) : من قول النابغة:
نبئت أن أبا قابوس أوعدني ... ولا قرار على زار من الأسد

تمثل به الحجاج حين سخط عليه عبد الملك. وكذلك : (لا يجمع سيفان في غمد) : قال أبو ذؤيب:

تريدين كيما تجمعيني وخالدا... وهل يجمع السيفان ويحك في غمد
 و(ألذ من الغنيمة الباردة): قال الجاحظ: إن أهل تهامة والحجاز
 لما عدموا البرد في مشاربهم وملابسهم إلا إذا هبت الشمال سموا
 الماء النعمة الباردة، ثم كثر ذلك منهم حتى سموا ما غنموه
 "البارد" تلذذا منهم كتلذذهم بالماء البارد. و(الحرب سجال) :
 المساجلة: أن تصنع مثل صنيع صاحبك من جري أو سقي. وأصله
 من السجل وهو الدلو فيها ماء قل أو كثر، ولا يقال لها وهي
 فارغة: سجل. قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:
 من يساجلني يساجل ماجدا... يملأ الدلو إلى عقد الكرب ،

و:(قد صرحت بجلدان): هو حمى قريب من الطائف لين مستوٍ،
 كالراحة، لا خمر فيه يتوارى به. يضرب للأمر الواضح البين الذي
 لا يخفى على أحد. وجلدان بكسر أوله وإسكان ثانيه وبالبدال
 المهملة على وزن فِعْلَان، وهي أرض سهلة؛ ولذلك قالوا: أسهل
 من جلدان. قال الشاعر:

ستشمظكم عن بطن وج سيوفنا ... ويصبح منكم بطن جلدان مقفرا

تشمظكم: تمنعكم. وكذلك جاء في أمثالهم: أعط القوس باريها بتسكين الياء في باريها، والأصل فتحها، وجاء أيضا في أمثالهم: "أجناؤها أبنائها" جمع جان وبان، والقياس الصرفي: جناتها بناتها؛ لأن فاعلا لا يجمع على أفعال. وتقول: الصيف ضيعت اللبن بكسر التاء إذا خوطب بها المذكر والمؤنث والاثتان والجمع، ومعنى ذلك أن المثل لا يغير، وأنهم يستجيزون فيه ما لا يستجيزون في سائر الكلام. وينبغي أن نلاحظ أن بعض الأمثال مبهم غامض، لا يفهمه سامعه، أو قارئه إلا إذا رجع إلى كتب الأمثال يستعين بها في شرح المراد منه، من ذلك قول العرب: "بعين ما أرينك"، فإن معناه أسرع، وهو معنى لا يفهم من اللفظ بتاتا، وقد علق عليه أبو هلال العسكري بقوله: "هو من الكلام الذي قد عرف معناه سماعا من غير أن يدل عليه لفظه". ومن هذه الأمثال الغامضة ما اضطرب الشراح في تفسيره على نحو ما نجد في هذا المثل: "لا يعرف الهر من البر". فقد ذكر بعضهم أن الهر: السنور، والبر: الفأرة في لغة، وقال بعض علماء الكوفة معنى المثل: لا يعرف من بهر عليه "يكرهه" ممن يبهره، وقال آخرون: الهر: دعاء الغنم، والبر: سوقها. على أن هذه الأمثال الغامضة قليلة، أما الكثرة فواضحة بينة. وقد أكثر العرب من صنع الأمثال، وضربها في جميع أحداثهم وشئون

حياتهم، وكثيرا ما كانوا يسوقونها في خطابتهم، يقول الجاحظ: "كان الرجل من العرب يقف الموقف، فيرسل عدة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعا ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع"، فقد أودعها تجاربههم، فاتسمت بالقبول وشاعت بالتداول،

ومن الأمثال الجاهلية المشروحة

أ- نفس عصامٍ سودت عصاما

يضرب لمن نال شرفاً بنفسه غير موروث عن آبائه وأصل ذلك: أن عصام بن بشير كان حاجباً عند ملك الحيرة النعمان بن المنذر ثم صار ملكاً فأصبح مضرب المثل في الاعتماد على الذات لبلوغ الهدف الرفيع ...

ب- تسمع بالمعيدي خير من أن تراه

((يضرب لمن خبره خير من مرآه)) وأصل ذلك أن المنذر بن ماء السماء- ملك الحيرة - كان يسمع بمشقة بن ضمرة المعيدي ويعجبه ما بلغه عنه، فلما رآه، وكان قبيح المنظر، قال: ((تسمع بالمعيدي خير من أن تراه)) فذهب مثلاً-

ج- كرهاً تركب الإبل للسفر.. ((يضرب للإنسان يفعل من الأمر ما يكره))

د-احفظ ما في الوعاء بشد الوكاء .((يضرب في الحث على أخذ الأمر بالحزم))

هـ-حلب الدهر أشطره ((يضرب في من جرب الدهر، وعرف خيره من شره))

والأشطر: جمع شطر وهو خلف الناقة أي حامة ضرعها

و- رجع بخفي حنين ((يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة)) وأصله أن حنيناً كان إسكافاً من أهل الحيرة فساومه

أعرابي بخفين فاختلفا حتى أغضبه فأراد حنين غيظ الأعرابي فلما ارتحل الأعرابي أخذ حنين أحد خفيه وطرحه في الطريق ثم ألقى

الآخر في موضع آخر فلما مر الأعرابي بأحدهما قال: ما أشبه هذا الخف بخف حنين ! ولو كان معه الآخر لأخذه ومضى فلما انتهى

إلى الآخر ندم على تركه الأول وقد كمن له حنين فلما مضى الأعرابي في طلب الأول عمد حنين إلى راحلته وما عليها فذهب

بها وأقبل الأعرابي وليس معه إلا الخفان فقال له قومه: ماذا جئت به من سفرك ؟ فقال: جئكم بخفي حنين فذهبت مثلاً ..

ح-جزاؤه جزاء سنمار: يضرب لمن يحسن في عمله فيكافأ بالإساءة إليه.

ط- إنك لا تجني من الشوك العنب: يضرب لمن يرجو المعروف في غير أهله أو لمن يعمل الشر وينتظر من ورائه الخير.

ومن الأمثال المشهورة :

- ١- أي الرجل المهذب
- ٢- إياك أعني واسمعي يا جارة
- ٣- تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها
- ٤- رب عجلة تهب ريثا
- ٥- رمتني بدائها وانسلت
- ٦- لا تعدم الحسناء ذاما
- ٧- لكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة
- ٨- مقتل الرجل بين فكيه
- ٩- المقدرة تذهب الحفيظة
- ١٠- من سلك الجدد أمن العثار
- ١١- الصيف ضيعت اللبن
- ١٢- أسمع من فرس في غلس
- ١٣- إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد
- ١٤- الحر حر وإن مسه الضر
- ١٥- إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه

- ١٦- أسمع جعجعة ولا أرى طحنا
- ١٧- من أجدب أنتج
- ١٨- ويل للشجي من الخلي
- ١٩- من استرعى الذئب ظلم
- ٢٠- لا تلد الحية إلا حية
- ٢١- كل مجر في الخلاء يسر
- ٢٢- قبل الرماء تملأ الكنائن
- ٢٣- تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها .
- ٢٤- مفصل الرجل بين فكيه .
- ٢٥- أسمع جعجعة ولا أرى طحنا .
- ٢٦- من أجدب أنتج .

ثانياً- الحكمة :

١- توضيح وتعريف :

هي قول رائع يتضمن حكماً صحيحاً مسلماً به، أما المثل فهو قول يشبه مضربه بمورده فهو يقصد به تشبيه الحال التي حكى فيها بالحال التي قيل بسببها، ولذلك يحكى المثل بلفظه كما هو بدون تغيير مهما كان نوع الخطاب أو نسق الكلام. وكل من الحكمة والمثل، عبارة قصيرة بليغة، ولكنها غاية في تأدية المعنى

المقصود. وكل منهما يكون شعراً، ويكون نثراً، لكنهما في النثر أكثر دوراً، ولذلك يعدان في النثر. وهما ثمار ناضجة من ثمرات الاختبار الطويل، والتجربة الصادقة، والعقل الراجح، والرأي السديد. وكثيراً ما تقتبس الحكم والأمثال، وتوضع في الأقوال والأشعار، فتضفي على الكلام زينة؛ فوق ما تؤديه من إصابة المعنى وحسن التشبيه، ولذلك كان من الأدباء من نظم قصائد، وممن اشتهر بالحكمة من العرب: أكتف بن صيفي التميمي، وعامر بن الظرب العدائني، وهما من المعمرين، وكانت العرب تحتكم إليهما، ويقال إن عامر بن الظرب لما كبر واعتراه النسيان أمر ابنته أن تقرع بالعصا إذا جار عن القصد وكانت ابنته من حكيماوات العرب مثل هند بنت الخس.

٢- ومن أقوال أكتف في الحكمة :

- "ويل للشجي من الخلي،
- لم يذهب من مالك ما وعظك،
- رب عجلة تهب ريثاً،
- ادرعوا الليل فإنه أخفى للويل،
- إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد،
- ليس من العدل سرعة العذل،

- لا تطمع في كل ما تسمع،

- رب قول أنقذ من صول،

- حافظ على الصديق ولو في الحريق".

٣- ومن أقوال عامر بن الظرب:

- "رب زارع لنفسه حاصد سواه،

- من طلب شيئاً وجدته، وإن لم يجده أوشك أن يقع قريباً منه".

٤- نماذج من حكم العرب في الجاهلية:

أ- مصارع الرجال تحت بروق الطمع: فيها دعوة الي القناعة فإن الطمع يقتل صاحبه.

ب- رب ملوم لا نذب له : دعوة إلى التحقق من الأمر قبل توجيه اللوم للبريء.

ج- أدب المرء خير من ذهبه: معناها أن قيمة الإنسان بأدبه لا بماله..

د- سوء الظن منجاة وحسن الظن ورطة .

ه- من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء: معناها من استعان بقوم غير صالحين لم يفلح في عمله ويكون مثله كمثل من يقف الماء في حلقة ، فلا يجد سبيلا إلى إزالة غصته. فهي تدعو إلى حسن اختيار الأعوان.

و- من شدد نفر، ومن تراخى تألف: فالناس تنفر من الشديد

القاسي وتميل إلى اللين الرخي

ح-ظلم اللسان أنكى من السنان

ط -الخطأ زاد العجول

ي-من ضاق صدره اتسع لسانه . .

ه-الخصائص الفنية لأسلوب الحكمة

أ-روعة التعبير

ب- قوة اللفظ

ج-دقة التشبيه

ح-سلامة الفكرة مع الإيجاز

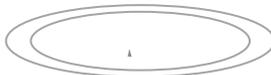
الباب الرابع

فن الخطابة

في العصر الجاهلي

أ- تعريف الخطابة :

هي أقدم فنون النثر، لأنها تعتمد علي المشافهة، وهي فن مخاطبة الجمهور بأسلوب يعتمد علي الاستمالة وعلى إثارة عواطف السامعين، وجذب انتباههم وتحريك مشاعرهم، وذلك يقتضي من الخطيب تنويع الأسلوب ، وجودة الإلقاء وتحسين الصوت ونطق الإشارة. أما الإقناع فيقوم علي مخاطبة العقل، وذلك يقتضي من الخطيب ضرب الأمثلة وتقديم الأدلة والبراهين التي تقتنع السامعين. وللخطابة شأن عظيم عند الجاهليين يضاهاى شأن الشعر ، إذ أن هذه الخطابة كانت نظرا لعدم وجود قوانين مدونة ، ونظم حكومية يلجأ إليها للدفاع عن النفس والقوم والقبيلة ومفاخرة القبائل الأخرى والدعوة إلى الصلح في المواسم والمحافل



. وقد اختلف الدارسون في منزلة الخطيب فاعتبرها البعض كمعرو بن العلاء فوق منزلة الشاعر نظراً لتكسب الشعراء بشعرهم، وردها الجاحظ إلى كثرة الشعراء وقد كان للعرب الجاهليين سنن خاصة في خطابتهم كأن يخطبون وهم يركبون رواحلهم في المواسم أو أن يقفوا على نثر من الأرض وأن يشيروا أثناء خطبتهم بالعصي والقسي والقنا وقد امتدح الدارسون في الخطيب جهارة الصوت وفخامته وظهور المحبة وثبات الجنان وذموا البهر عند الخطيب والارتعاش والرعدة والحصر والعي، والخطابة حديث يقصد به إثارة المشاعر وإلهاب العواطف في الحال. والحياة الجاهلية جعلت الخطابة ضرورية لهم، فهم في اجتماعاتهم وفي عرض آرائهم، وفي القيام بواجباتهم في السفارات والوفود كانوا -ولا شك- يحتاجون إلى الإفصاح عما يريدونه؛ رغبة في الوصول إلى مقاصدهم وكلما كان إفصاحهم أقوى وأعذب كان تأثيره في القلوب أشد، فساعد ذلك على وجود الخطابة بينهم. وقد ثبت أنهم كانوا يخطبون في مناسبات شتى، فبالخطابة كانوا يحرضون على القتال؛ استثارة للهمم، وشحداً للعزائم، وبها كانوا يحثون على شن الغارات؛ حباً في الغنيمة، أو بثاً للحمية رغبة في الأخذ بالثأر، وبالخطابة كانوا يدعون للسلم؛ حقناً للدماء، ومحافظة على أوامر

القربى أو المودة والصلة، ويحببون في الخير والتصافي والتآخي، ويبغضون في الشر والتباغض والتناذب، وبالخطابة كانوا يقومون بواجب الصلح بين المتنافرين أو المتنازعين، ويؤدون مهام السفارات جلبًا لمنفعة، أو درعًا لبلاء، أو تهنئة بنعمة، أو تعزية أو مواساة في مصيبة، فوق ما كانت الخطابة تؤديه هذه المصاهرات، فتلقى الخطب ربطًا لأواصر الصلة بين العشائر، وتحبيب المتصاهرين بعضهم في بعض.

ب-مكان الخطيب في العصر الجاهلي :

كان الخطباء في العصر الجاهلي يحفلون بخطبهم، ويتخيرون لها أشرف المعاني، وأقوى الألفاظ، وأشدها وقعًا على القلوب؛ ليكون تأثيرها أعظم، ويقال إنهم كانوا يخطبون، وعليهم العمائم، وبأيديهم المخاصر، ويعتمدون على الأرض بالقسي، ويشيرون بالعصي والقتا، راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض . وقد أثارت الشعوبية في موقفها من العرب عادة اتخاذهم العصي والمخاصر في أثناء خطابتهم، فرد عليهم الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، مبيّنًا فوائد العصا، ومما قاله: "إن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للإطناب والإطالة. وذلك شيء خاص في خطباء العرب، ومقصود عليهم، ومنسوب إليهم، حتى إنهم

ليذهبون في حوائجهم، والمخاصر بأيديهم إلفاً لها، وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها، والإشارة بها". ونجد أمثلة من خطب الجاهليين في كتب الأدب والتاريخ؛ مثل العقد الفريد لابن عبد ربه؛ والأغاني؛ والأمالي؛ والبيان والتبيين للجاحظ، وفتوح الشام لأبي إسماعيل البصري، وفتوح الشام للواقدي، وفتوح البلدان للبلاذري وتاريخ الطبري، وابن الأثير. لما كان للخطيب والخطابة في العصر الجاهلي من شأن عظيم، إذ كانوا يستخدمونها في مناسباتهم ومفاخراتهم، وفي النصيح والإرشاد، وفي الحث على قتال الأعداء، وفي الدعوة إلى السلم وحقن الدماء، وفي مناسباتهم الاجتماعية المختلفة كالزواج، والإصهار إلى الأشراف، وكانوا يخطبون في الأسواق والمحافل العظام، والوفادة على الملوك والأمراء، متحدثين عن مفاخر قبائلهم ومحامدها، ونحن نعرف قصة وفد تميم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما كان من قيام عطارد بين حاجب بن زرارة خطيباً بين يديه، ويقول أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كعدة:

أبا دليجة من يكفي العشيرة إذ... أمسوا من الخطب في نار وبلبال
أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا.. لدى الملوك ذوي أيد وأفضال
ويقول فيه أيضا :

ألهفا على حسن آلائه ... على الحابر الحي والحارب
ورقبته جثمات الملو ... ك بين السرادق والحاجب
ويكفي المقالة أهل الدحا ... ل غير معيب ولا عائب
ورقبته: انتظاره إذن الملوك، وقد تجعله بين السرادق، والحاجب
ليدل على مكانة من الملك. وهناك دلائل مختلفة تدل على أن
منزلة الخطيب في الجاهلية كانت فوق منزلة الشاعر، ويقول أبو
عمرو بن العلاء: "كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب،
لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم،
ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويخوف من
كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم، فلما كثر
الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة، ورحلوا إلى السوق،
وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر"،
وتابعه الجاحظ يقول: "كان الشاعر أرفع قدرا من الخطيب، وهم
إليه أحوج لرده مآثرهم عليهم، وتذكيرهم بأيامهم. فلما كثر الشعراء
وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدرا من الشاعر". وواضح أن
الجاحظ يجعل كثرة الشعر والشعراء وحدها هي السبب في تقدم
الخطباء، أما أبو عمرو فيرد ذلك إلى أن هذه الكثرة استتبع
تحول الشعراء إلى التكسب بشعرهم، ومسارعتهم إلى الطعن في

الأعراض، ونظن ظنا أن تفوق الخطيب على الشاعر في الجاهلية يرجع إلى طائفة متشابهة من الأسباب منها أن الخطابة كانت من لوازم ساداتهم الذين يتكلمون باسمهم في المواسم والمحافل العظام، ومن أجل ذلك كانت تقترن بها الحكمة والشوق والرياسة، كما تقترن بها الشجاعة، ويتضح ذلك في مرثيهم، ومدائحهم لساداتهم على نحو ما تقدم في رثاء أوس بن حجر لفضالة بن كعدة، ويقول الأعشى في مديح قوم:

فيهم الخصب والسماحة والنج ... دة جمعا والخابط الصلاق

ويقول زيان بن سيار الغزاري:

ولسنا كأقوام أجدوا رياسة ... يرى مالها ولا يحس فعالها

يريغون في الخصب الأمور، ونفعهم .. قليل إذا الأموال طال هزالها

وقلنا بلا عي ولسنا بطاقة ... إذا النار نار الحرب طال اشتعالها

ويقول عامر المحربي:

أولئك قومي إن يلذ ببيوتهم ... أخو حدث يوما فلن يتهضما

وكم فيهم من سيد ذي مهابة ... يهاب إذا مار رائد الحرب أضرما

وهم يدعمون القول في كل موطن ... بكل خطيب يترك القوم كظما

يقوم فلا يعيا الكلام خطيبنا ... إذا الكرب أنسى الحبس أن يتكلما

وأيضاً إلى هذا السبب تفوق الخطيب على الشاعر في الجاهلية اتساع وظيفته، إذ كان يفاخر وينافر عن قومه، فيشترك بذلك مع الشاعر كما يشترك معه في الحز على القتال، ثم ينفرد بمواقف خاصة به كالوفادة على الملوك، وكانصح والإرشاد، وخطبهم في الإملاك والزواج مشهورة، ومن أهم المواقف التي كان ينفرد بها أنه كان يدعو إلى السلم، وأن تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة أوزارها، أما الشاعر فلم يكن يدعو إلا إلى الأخذ بالتأثر، وإشعال نار الحرب، ولعل ذلك ما جعل ربيعة بن مقروم الضبي يقول:

ومتى تقم عند اجتماع عشيرة ... خطباؤنا بين العشيرة يفصل
ويقول أبو زبيد الطائي:

وخطيب إذا تمعرت الأو ... جه يوما في مآقط مشهود
ويقول بشر بن أبي خازم :

وكنا إذا قلنا: هوازن أقبلي... إلى الرشد لم يأت السداد خطيبها

ج- أشهر الخطباء في العصر الجاهلي :

تتردد في كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغيره من كتب الأدب أسماء طائفة كبيرة من خطباء الجاهلية الذين اشتهروا بالفصاحة، ووضوح الدلالة والبيان عما في أنفسهم، مما جعل الأسماع والقلوب تهش إليهم، ويعظم في الناس خطرهم، ويشيع في الآفاق

ذكرهم، وكانوا ينتشرون في الجزيرة بمكة، والمدينة وما وراءهما من قبائل البادية، أما مكة المكرمة ، فقد كانت بها دار الندوة، وهي أشبه بمجلس شيوخ مصغر، كان يجتمع فيها سادة العشائر القرشية يتشاورون في أمورهم، وفي أثناء ذلك يخطبون ويتحاورون

وأشهر الخطباء في الجاهلية:

- ١- قس بن ساعدة الأيادي، وقد أدركه النبي صلى الله عليه وسلم فرآه في سوق عكاظ على جمل أحمر،
- ٢- وسحبان بن وائل الباهلي الذي ضرب بفصاحته المثل. فقيل: "أخطب من سحبان" ويقال إنه كان إذا خطب يسيل عرقاً، ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى ينتهي من كلامه
- ٣- ومن خطباء تميم المشهورين: ضمرة بن ضمرة،
- ٤- وأكثم بن صيفي،
- ٥- وعمرو بن الأهتم المنقري،
- ٦- وقيس بن عاصم.
- ٧- ومن خطبائهم المفوهين عتبة بن ربيعة، وهو خطيب قريش يوم بدر،

٨- ومن خطبائها سهيل بن عمرو الأعم، وهو الذي قال فيه عمر للنبي صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيبا أبدا، فقال الرسول عليه السلام: "لا أمثل فيمثل الله بي، وإن كنت نبيا، دعه يا عمر فعسى أن يقوم مقاما تحمده". وقد أسلم وحسن إسلامه، وكانت له مواقف محمودة.

٩- ولقريش أيضا خطباء كان ينفر إليهم العرب أمثال هاشم وأمّية

١٠- ونفيل ابن عبد العزى جد عمر بن الخطاب، وإليه نفر عبد

المطلب بن هاشم، وحرب بن أمّية .

١١- وأما المدينة المنورة ، فذكر الجاحظ من خطبائها قيس بن

الشماس

١٢- وثابت بن قيس بن شماس خطيب الرسول صلى الله عليه

وسلم

١٣- وسعد بن الربيع، وهو الذي اعترضت ابنته الرسول صلوات

الله عليه، فقال لها: "من أنت؟ فقالت: ابنة الخطيب النقيب الشهيد

سعد بن الربيع".

١٤- وإذا تركنا مكة والمدينة إلى القبائل المنبثحة في البادية، وجدنا ممن اشتهروا فيها بالخطابة ابن عمار الطائي، وهو خطيب مذحج كلها،

١٥- وهانئ بن قبيصة خطيب شيبان يوم ذي قار،

١٦- وزهير بن جناب خطيب كلب وقضاعة،

١٧- وربيعة بن حذار خطيب بني أسد، وإليه احتكم الزبير بن بدر والمخبل السعدي، وعبد بن الطبيب وعمرو بن الأهتم أيهم أشعر.

١٨- ومن الخطباء المشهورين في القبائل أيضا عامر بن الظرب أحد حكام العرب في الجاهلية، ومن كانوا يقضون بينهم في خصوماتهم.

١٩- وممن اشتهر باللسن والخطابة، والشعر لبيد بن ربيعة العامري، ومن قوله:

وأخلف قسا ليتني ولو أنني ... وأعيى على لقمان حكم التدبير

ومن قوله أيضا:

وأبيض يجتاب الحروق على الوجى ... خطيبا إذا التف المجمع
فيصلا

٢٠- ومن خطبائهم هرم بن قطبة الفزاري ، وهو صاحب المنافرة المشهورة بين علقمة بن علاثة، وعامر بن الطفيل، وقد رآه عمر بن الخطاب يوما في المسجد، فقال له: "أرأيت لو تنافرا إليك - يعني علقمة وعامر- أيهما كنت تنفر: يا أمير المؤمنين لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جذعة، فقال عمر: لهذا العقل تحاكت إليك العرب".

٢١- ومن الخطباء البلغاء عمرو بن كلثوم خطيب تغلب.

٢٢- وهيدان بن شيخ الذي قال فيه الرسول عليه السلام: "رب خطيب من عبس"

٢٣- والعشراء ابن جابر

٢٤- وخويلد بن عمرو خطيب يوم الفجار

٢٥- وقيس بن خارجة بن سنان، ويقال: إنه خطب في حرب داحس والغبراء يوما إلى الليل، وكل هؤلاء من غطفان.

٢٦- ومن الخطباء حنظلة بن ضرار خطيب بني ضبة، وقد طال عمره حتى أدرك يوم الجم.

٢٧- ولم تشتهر قبيلة بالخطابة كما اشتهرت إياد وتميم، ومن إياد قس بن ساعدة الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: "رأيتك بسوق عكاظ على جبل أحمر، وهو يخطب في الناس".

- ٢٨- ومن خطباء تميم المفوهين ضمرة بن ضمرة،
 ٢٩- وأكثم بن صيفي وقيس بن عاصم ،
 ٣٠- وعطار بن حاجب بن زرارة خطب وفد تميم بين يدي الرسول،
 ٣١- وعمر بن الأهتم المنقري، ولم يكن في بادية العرب في
 زمانه أخطب منه.

د- سنن الخطيب الجاهلي :

وما من ريب في أن هذه الكثرة من الخطباء -ووراءهم كثير لم نذكرهم- تدل دلالة بينة على ما كنت عليه الخطابة من رقي وازدهار. وكان للخطباء حينئذ سنن خاصة في أداء خطابتهم، منها أنهم كانوا يخطبون على رواحلهم في المواسم العظام، والمجامع الكبار، وكان من عاداتهم لوث العمائم على رؤوسهم، والإشارة في أثناء خطابتهم بالعصي والمخاطر والقنا والقضبان والقسي . وفي ذلك يقول لبيد:

ما إن أهاب إذا السرادق غمه ... قرع القسي وأرعى الرعيد
 وقد حملت الشعوبية حملة شعواء على العرب لاتخاذهم في
 خطابتهم المخاصر والعصي، ووصل أيمانهم بالقضبان والقسي،
 ورد عليهم الجاحظ ردا طويلا مفحما في فاتحة الجزء الثالث من
 كتاب البيان والتبيين. والعرب يمدحون جهارة الصوت وشدته،

ويعيبون ضيقه، ودقته كمان يعيبون على الخطيب أن يعترضه البهر، والارتعاش والرعدة، أو يعتريه شيء من الحصر والعي، يقول أبو العيال الهذلي:

ولا حصر بخطبته ... إذا ما عزت الخطب

وكان يكرهون أن يمس الخطيب ذقنه، وسباله وشواربه، يقول معن بن أوس المزني في بعض هجائه:

إذا اجتمع القبائل جئت ردفا ... وراء الماسحين لك السبالا

فلا تعطي عصا الخطباء فيهم ... وقد تكفى المقادة والمقالا

وإذا كانوا قد عابوا ذلك في الخطيب، فقد مدحوا فيه -على نحو ما يلاحظ ذلك الجاحظ في بيانه- شدة العارضة، وظهور الحجة، وثبات الجنان وكثرة الريق، والعلو على الخصوم في مضايق الكلام، ومآزق الخصام. ومن سنن وتقاليد إلقاء الخطب أنه :

١- كأن يقف الخطيب على مرتفع من الأرض، معتمداً على قوسه، أو ممسكاً بعصا يشير بها،

٢- وقد يخطب راكباً على ناقته، ويبيده الرمح، وقد لاث العمامة على رأسه.

-ومما يمدح به الخطيب عندهم:

١- حضور البديهة،

٢- وقلة التفات،

٣- وقوة الجنان،

٤- وظهور الحجة،

٥- جهازة الصوت.

- ومن عيوب الخطيب :

١- التتنح،

٢- والانقطاع،

٣- والاضطراب،

٤- والتعثر في الكلام.

هـ - أنواع الخطابة في العصر الجاهلي :

تعددت أنواع الخطابة في هذا العصر:

١ - خطب المنافرة المفاخرة

٢-خطب النصح والإرشاد

٣-خطب الحث على القتال

٤- خطب الدعوة للسلم وحققن الدماء

٥- خطب الزواج والمصاهرة

٦-خطب الأسواق والمحافل العظام

٧- الوفادة على الملوك والأمراء

٨- الحديث على مفاخر القبيلة و محامدها

و-مميزات الخطابة الجاهلية:

١- قصر العبارة

٢- وكثرة الحكم والأمثال

٣- واللجوء إلى السجع القصير الفواصل

٤- الإحاطة بالتجويد والصور ومخارج الكلمة

وقد ازدهرت الخطابة عند العرب متأخرة في الزمن، لأن الشعر كان متفوقاً عليها، فلما أصبح الشعر مطية للتكسب صارت منزلة الخطيب هي المقدّمة. واشتهر في العصر الجاهلي خطباء كثيرون، مثل: قس بن ساعدة الإيادي، وهانئ بن قبيصة الشيباني وعامر بن الظرب العدواني، وعمرو بن كلثوم التغلبي، وأكثم بن صيفي وعمرو بن الأهمم التميميان، وهاشم بن عبد مناف القرشي. عمرو بن معد يكرب عمرو بن كلثوم ، ، عمرو بن الأهمم المنقري وتعد قبيلة تميم من أشهر القبائل العربية خطابة .

ز- أغراض الخطابة الجاهلية :

وقد تعددت أغراض الخطابة الجاهلية وأنواعها، إزاء هذا الازدهار، فكانت:

١- وسيلة للتحريض على القتال،



- ٢- أو للأخذ بالثأر،
- ٣- وربما كانت في الوقت نفسه سبيلاً إلى إصلاح ذات البين أو إرساء قواعد السلم.
- ٤- وقد تكون في إشاعة المفاخر، والإشادة بالأنساب أمام الملوك وزعماء القبائل، والأمراء.
- ٥- وقد تلقى الخطب في مناسبات الزواج، والمصاهرات بين ذوي الأحساب والأنساب، فيتكلم خطيب من كل جانب. قال الجاحظ: «كانت خطبة قريش في الجاهلية، يعني خطبة النساء: باسمك اللهم ذكرت فلانة، وفلان بها مشغوف. باسمك اللهم، لك ما سألت، ولنا ما أعطيت».

ح- خصائص الخطابة في العصر الجاهلي :

الخطابة مظهر من مظاهر السيادة عند العرب وعلامة من علامات كبريائهم واعتزازهم وسبيل من سبل التأثير والإقناع تحتاج إلى حذاقة اللسان ونصاعة البيان وطلاقة البديهة والعرب ذوو نفوس حساسة وإباء وأولو غيرة ونجدة فكان لهم فيها القدم السابقة والقدر المعلى يلجأ إليها المرء للدفاع عن نفسه وقومه في مواقف المفاخرة والذود عن الشرف والذمار وإصلاح ذات البين بين حي وحي أو بين قبيلة وقبيلة والدعوة إلى التفاهم والصلح كما كان

يدعو الخطيب إلى الحرب وسفك الدماء ، وكانوا كثيراً ما يخطبون في وفادتهم على الأمراء والملوك إذ يقف رئيس الوفد بين يدي الأمير أو الملك فيحييه متحدثاً بلسان قومه يقول الجاحظ في كتابه البيان والتبيين اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو والحضر على ضربين منها الطوال ومنها القصار ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة ومتشاكلاً في استواء الصنعة ومنها ذوات الفقر الحسان والنتف الجياد ووجدنا عدد القصار أكثر ورواة العلم إلى حفظها أسرع وقد اتخذ العرب من مجالسهم ومن أسواقهم ومن وفاداتهم على الأمراء والملوك ميادين لإظهار براعتهم في فنون الكلام وما فطروا عليه من فصاحة وحضور بديهة وكادت منزلة الخطيب تعلق منزلة الشاعر لولا حاجتهم إلى الشعر الذي يعزز شأنهم ويرفع منزلتهم ويهيب من فرسانهم عرف العرب لونين من الخطابة لوناً مسجوعاً ولوناً مرسلأً إذ كانوا يبتغون التجويد في كلامهم تارة بما يصوغونه فيه من سجع وتارة أخرى بما يخرجونه من استعارات وأخيلة فجاء أسلوب الخطابة عندهم رائع اللفظ خلاب العبارة واضح المنهج قصير السجع كثير الأمثال يعتمد على الخيال والبلاغة

-وأهم خصائص أسلوب الخطبة الجاهلية:

- ١- وضوح الفكرة.
- ٢- جودة العبارة وسلامة ألفاظها.
- ٣- الإكثار من السجع غير المتكلف.
- ٤- التنوع في الأسلوب بين الخبري والانشائي.
- ٥- قلة الصور البيانية..
- ٦- استخدام الأسلوب المرسل في خطب المحافل وإصلاح ذات البين، و لا يغفل صاحب الأسلوب المرسل- في الوقت نفسه عن تجويد وتنقيح خطبته، والتروي فيها، سعياً إلى إثارة السامعين واستمالتهم.
- ٧- إيثار قصر العبارة ، وتوشيحها ببعض الحكم والأمثال،
- ٨- قد تطول الخطبة ، وقد تقصر، ولكل منهما مقام وموضع وقدر من العناية.

ط- أجزاء الخطبة الجاهلية : للخطبة أجزاء ثلاثة هي :

(المقدمة - والموضوع - والخاتمة)

أما أهداف الخطبة فهي: الإفهام والإقناع والإمتاع والاستمالة.

ي- أسباب ازدهار الخطبة في العصر الجاهلي:

ازدهرت الخطبة في العصر الجاهلي للأسباب التالية :

١- حرية القول.

٢ - وجود دواعي الخطابة كالحرب والصلح والمغامرات.

٣ - الفصاحة فكل العرب كانوا فصحاء.

ولقد اجتمعت كل هذه الخصائص في خطبة (قس من ساعدة الإيادي) والجدير بالذكر أنه ليس بين أيدينا نصوص وثيقة من الخطابة الجاهلية، لما قلناه من بعد المسافة بين العصر الذي قيلت فيه وعصور تدوينها؛

ل- الصنعة في الخطابة الجاهلية:

من الصفات التي تميز عرب الجاهلية أنهم كانوا يحبون البيان، والطلاقة والتحبير والبلاغة، ودفعهم ذلك إلى الاحتفال بخطاباتهم احتفالاً شديداً، لا من حيث الصقل، وتجديد الألفاظ فحسب، بل أيضاً من حيث مخارج الكلم، ولعلمهم من أجل ذلك كانوا يتزيدون في جهازة الأصوات، كما كانوا ينتحلون سعة الأشداق، وهذل الشفاه، حتى إن فريقاً منهم كانوا يتخللون كلامهم بأسننتهم، ومن لم يصنع ذلك عمد إلى ضروب من التقعير والتمطيط والجهورة والتفخيم. وليس بين أيدينا نصوص وثيقة نستطيع بها أن نحكم أحكاماً دقيقة على خطاباتهم وصناعتهم فيها، وحققا نجد بعض خطب مبثوثة في الطبري، والأغاني والأمالي والعقد الفريد، ولكن

هذه الخطب جميعا ينبغي أن نتلقاها بشيء من الاحتراس، وخاصة ما رواه الكتاب الأخير من خطب طويلة لهم في وفودهم على كسرى وغير كسرى، فإن الانتحال ظاهر فيها، أما الخطب الأخرى، فأكبر الظن أن الرواة جمعوا بعض شظايا، وزادوا عليها من خيالهم، ومن ثم لا يصح الاستدلال بهذه الخطب جميعا على أنها تمثل الخطابة الجاهلية تمثيلا صحيحا، وهذا الجاحظ على كثرة ما روى في بيانه من خطب لم يستطع الاستشهاد للجاهليين، إلا بجمل وصيغ متفرقة لا تكون خطبة كاملة. ومهما يكن فنحن نؤمن بأن أكثر ما يروى من الخطابة الجاهلية لا يصح الاطمئنان إليه من الوجه التاريخي لطول المسافة بين روايته وكتابته، وإن كان ذلك لا يمنعنا من تسجيل بعض الظواهر، والخصائص لتلك الخطابة، فإن من يرجع إلى ما روي منها من كتب الأدب والتاريخ يلاحظ أن أغلب ما روي من خطب القوم روي مسجوعا، ويؤكد الجاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي روى خطبة قس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ، ويقول: إنه إسناد تعجز عنه الأماني، وتنقطع دونه الآمال، ومع ذلك لم يستطع روايتها كاملة إنما روى أجزاء منها. وواضح أن هذه القطع من خطابة قس بنيت على السجع، وقد روى الطبري كلمة لنفيل بن عبد العزوى

في منافرة عبد المطلب بن هاشم، وحرب بن أمية، وهي مسجوعة كما روى أبو عبيدة في النقائض منافرة جرير بن عبد الله البجلي، وخالد بن أرطاة الكلبي إلى الأقرع بن حابس، وهي مسجوعة أيضا، وبنيت على السجع كذلك منافرة علقمة بن علاثة، وعامر بن الطفيل . ولم نسق ذلك لنسلم بصحة هذه المرويّات من المنافرات وصحة صياغتها، ولكننا سقتنا لتخلص منه إلى أنه ثبت عند من كانوا يروون المنافرات والخطب الجاهلية أنها كانت تعتمد اعتمادا شديدا على السجع، ويؤيد ذلك قول الجاحظ: إن "ضمرة بن ضمرة وهم بن قطبة، والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع، وكذلك ربيعة بن حذار" ، وقد اشتمل هذا النص على خطباء من تميم، وأسد وفزارة وقريش، وفي ذلك ما يدل على شيوع السجع في الخطابة الجاهلية. وما من شك في أن صناعة السجع تحتاج إلى قيم موسيقية كثيرة، حتى تتم معادلاته الصوتية وموازناته الإيقاعية، وكانوا يدمجون كثيرا من الصور والتشبيهات والاستعارات في هذا السجع، كما كانوا يدمجون كثيرا من التجويد والتحبير، ويشهد لهم الجاحظ بما كانوا يعانونه في خطبهم وخاصة الطويلة منها إذ يقول: "لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد، وفي صنعة طوال الخطب ... وكانوا إذا

احتاجوا إلى الرأي في معازم التدبير، ومهمات الأمور مثله في صدورهم، وقيدوه على أنفسهم، فإذا قومه الثقات وأدخل الكير وقام على الخلاص أبرزوه محكماً منقحاً، ومصفى من الأدناس مهذباً، وقد عبر العرب أنفسهم في شعرهم بصور مختلفة عن مدى تجويدهم في خطابتهم، وانظر إلى لبيد يقول لهرم بن قطبة في حكومته بين علقمة بن علاثة، وعامر بن الطفيل :

إنك قد أوتيت حكماً معجباً ... فطبق المفصل واغنم طيباً

يقول له: احكم بين الرجلين بكلمة فصل تفصيل بها بين الحق، والباطل كما يفصل الجزار الحاذق مفصل العظمين. ويقول لبيد عن نفسه مدلاً ببيانه وبراعته، وما أوتي من حسن الجدل والعلو على خصومه:

ومقام ضيق فرجته ... ببيان ولسان وجدل

ويقول قيس بن عاصم المنقري التميمي واصفاً ما فيه قومه من

الخطابة والفصاحة، وإحسان هذا الجانب من البيان والبلاغة:

إني أمرؤ لا يعترني خلقي ... دنس يفنده ولا أفن.

من منقر في بيت مكرمة ... والأصل ينبت حوله الغصن

خطباء حين يقوم قائلهم ... بيض الوجوه مصاقع لسن

وعلى نحو ما وصفوا الخطيب بأنه مصقع، ولسن وصفوه بأنه مدره، يقول زهير بن أبي سلمى في مديح هرم بن سنان: ومدره حرب جميعا يتقى به ... شديد الرجام باللسان وباليده وواضح أنه يشبه ما يلقيه من لسانه كلاما بما يلقيه من يده سهامًا. وقد وصفوا اللسان بأنه عصب وقاطع وجارح، كما وصفوا الخطيب بأنه لودعي، يقول شاعرهم:

هو الشجاع والخطيب اللودعي ... والفارس الحازم والشهم الأبي ولعل من الطريف أننا نجدهم يصفون خطابهم بأنها كالوشي المنمق، ففيها تدبيح، وتزيين يشبه ما يجدونه في الثياب اليمانية الموشاة، يقول أبو قرد ودة الطائي في رثاء ابن عمار خطيب طيئ، وقد مات مقتولاً:

يا جفنة كإزاء الحوض قد هدموا ... ومنطقا مثل وشي اليمنة الحبرة

ويقول فيه أيضاً:

ومنطق خرق بالعواسل ... لذ كوشي اليمنة المراحل فأبو قردودة يحس في خطب ابن عمار ما يحسه في وشي الحلل المنمقة، وهو إحساس بالغ، عبر به هو وأضرابه عن عنايتهم بخطاباتهم، ومقدار ما كانوا يحققون لها من مهارة وصنعة، وبلغ

من جمال بعض خطبهم أن اقترحوا لها أسماء، وإن كانوا يحفظونها ويتوارثونها، لروعة بيانها وجودة فصاحتها وبلاغتها، يقول الجاحظ: "ومن خطب العرب العجوز، وهي خطبة لآل رقية، ومتى تكلموا فلا بد لهم منها، أو من بعضها ومنها العذراء، وهي خطبة قيس بن خارجة في حرب داحس والغبراء، سميت بذلك؛ لأنه كان أبا عذرها. والحق أن خطباء العصر الجاهلي نهضوا بخطاباتهم نهضة واسعة، ولذلك لم يكن غريبا أن يستمع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بعضهم وهو يخطب، فيقول: "إن من البيان لسحرا". ولم يكن هذا البيان الساحر شيئا خاصا بهذا الخطيب، بل كان شيئا عاما بين الخطباء، إذ ذهبوا جميعا مذهب التجويد والتحبير، حتى يستميلوا الأسماع ويخلبوا الألباب.

ن- نماذج من الخطب في العصر الجاهلي :

١- خطبة قس بن ساعدة :

يؤكد الجاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي روى خطبة قس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ، ويقول: إنه إسناد تعجز عنه الأماني، وتنقطع دونه الآمال، ومع ذلك لم يستطع روايتها كاملة إنما روى أجزاء منها، هي قوله: "أيها الناس اسمعوا وعوا. من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. آيات

محكمات، مطر ونبات، وآباء وأمهات، وذاهب وآت، ضوء وظلام،
وبر وآثام، لباس ومركب، ومطعم ومشرب، ونجوم تمور، وبحور لا
تغور، وسقف مرفوع، ومهاد موضوع، وليل داج، وسمات ذات
أبراج، مالي أرى الناس يموتون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا، أم
حبسوا فناموا".

٣-خطبة أخرى لقس بن ساعدة :

وروى الجاحظ لقس بن ساعدة أيضا قطعة من خطبة أخرى على
هذا النحو: "يا معشر إياد، أين ثمود وعاد، وأين الآباء والأجداد،
أين المعروف الذي لم يشكر، والظلم الذي لم ينكر". وواضح أن
هذه القطع من خطابة قس بنيت على السجع،

٤-خطبة : (النعمان بن المنذر) أمام كسرى حين وفد العرب على

(كسرى)

يعد النعمان بن المنذر العربي شديد الاعتزاز بوطنه وأمهته يأبى
الضيم ويرفض الهوان يبذل دمه في سبيل كلمة الحق ، وللعرب في
الجاهلية مواقف بطولية نعتز بها نحن العرب ونفخر بها ، وما
موقف النعمان بن المنذر أمام كسرى إلا أحد هذه المواقف
البطولية الرائعة فقد قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود
الروم والهند والصين فذكروا ملوكهم وبلادهم فافتخر النعمان



بالعرب ومما قاله: ((وأما أنسابها وأحسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها حتى إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه فلا ينسبه ولا يعرفه وليس أحد من العرب إلا يسمي آباءه أبا فأباً حاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم فلا يدخل رجلٌ في غير قومه ولا ينتسب إلى غير نسبه ولا يدعي إلى غير أبيه وأما سخاؤها فإن أدناهم رجلاً الذي تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه في حموله وشبعه وريه فيطرقة الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزئ بالشرية فيعقرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحداث وطيب الذكر وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من السنة الأجناس ثم خيلهم أفضل الخيل ونساؤهم أعف النساء ولباسهم أفضل اللباس ومعادنهم الذهب والفضة وحجارة جبلهم الجزع ومطاياهم التي لا تبلغ على مثلها سفر ولا يقطع بمثلها بلد قفر وأما دينها وشريعته فإنهم متمسكون به حتى لا يبلغ أحد من نسكه بدينه أن لهم شهراً محرماً وبلداً محرماً وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رغبته فيه

فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى ، وإن أحدهم ليرفع
 عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يغلُق رهنه ولا تخفر ذمته
 وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به وعسى أن يكون نائياً عن
 داره فيصاب فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى
 قبيلته لما أخفر من جواره)) .

شرح المفردات:

البكرة: الناقة الفتية، الناب: الناقة المسنة، البلاغ: الكفاية، الجزع:
 خرز يمانى فيه سواد وبياض، السفر: المسافرون، المناسك: هي
 فروض الحج وتعبداته، الوثاق: العهد، غلق الرهن: استحققه
 المرتهن، والمراد هنا أنه يجعل العود بمنزلة رهن فلا بد أن يفتكه
 ولا يرضى بانتكاث عهده .

٥- **خطبة هانى بن قبيصة في يوم ذي قار**، حيث يحرض قومه
 بكرًا على القتال، ومنها: "يا معشر بكر، هالك معذور خير من ناج
 فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر،
 المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر
 النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر، قاتلوا فما
 للمنايا من بد".

٦- **كلمة قبيصة بن نعيم في وفد بني أسد** : حين قدموا على امرئ القيس بعد مقتل أبيه، فيروى أنه وفد على امرئ القيس، بعد مقتل أبيه، رجالات من بني أسد، كهول وشبان، وفيهم عبيد بن الأبرص الشاعر، والمهاجر بن خدّاش، وقبيصة بن نعيم، فلما علم امرؤ القيس بمكانهم، أمر بإنزالهم، وتقدم في إفضالهم، والإكرام عليهم، واحتجب عنهم ثلاثاً، فقالوا لمن يباريه من رجال كندة: ما بال الرجل لا يخرج إلينا؟ فقال: هو في شغل بإخراج ما في خزائن حجر من العدة والسلاح، فقالوا: اللهم غفراً! إنما قدمنا عليه في أمر نتناسى به ذكر ما فات، ونستدرك ما فرط. فليبلغ ذلك عنا. فخرج عليهم في قباء، وخف، وعمامة سوداء، وكانت العرب لا تعتم بالسواد إلا في الترات . فلما رأوه نهضوا، وبدر قبيصة فقال: إنك في المحل والقدر، والمعرفة بتصرف الدهر، وما تحدثه أيامه، وتنتقل به أحواله، بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ، ولا تذكرة مجرب. ولك من سوّدد منصبك، وشرف أعراقك، وكرم أصلك في العرب محتمل يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة، والرجوع عن الهفوة، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك، فوجدت عندك من فضيلة الرأي، وبصيرة الفهم، وكرم الصفح، ما يطول رغباتها، ويستغرق طلباتها؛ وقد كان الذي كان من الخطب الجليل. الذي

عمت رزيته نزارًا واليمن، ولم تخصص به كندة دوننا؛ للشرف البارع الذي كان لحجر: التاج والعمة فوق الجبين الكريم، وإخاء الحمد، وطيب الشيم ولو كان هالك يفدى بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك، ولفديناه منه. ولكن مضى به سبيل لا ترجع أولاه على آخره ولا يلحق أقصاه أدناه، فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث: إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتًا، وأعلاها في بناء المكرمات صوتًا، فقدناه إليك بنسعة تذهب مع شفرات حسامك بباقي قصرته : فيقال: رجل امتحن بهلك عزيز عليه فلم تستل سخيمته إلا بتمكينه من الانتقام، أو فداء بما يروح على بني أسد من نعمها، فهي ألوف تجاوز الحسبة، وكان ذلك فداء ترجع به القضب إلى أجفانها، لم يردده تسليط الإحن على البراء، وإما أن تواعدنا حتى تضع الحوامل، فنسدل الأزر، ونعقد الخمر فوق الرايات. قالوا: فبكى امرؤ القيس ساعة؛ ثم رفع طرفه إليهم، فقال: قد علمت العرب أن لا كفاء لحجر في دم، وإني لن أعتاض به ناقة أو جملاً، فأكتسب بذلك سبة الأبد، وفت العضد؛ وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها، ولن أكون لعطبها سببًا،

وستعرفون طلائع كندة من بعد، تحمل في القلوب حنقا وفوق
الأسنة علقا.

إذا جالت الخيل في مازق ... تصافح فيه المنايا النفوسا
أتقيمون أم تنصرفون؟ قالوا: بل ننصرف بأسوأ الاختيار، وأبلى
الاجترار، لحرب وبلية، ومكروه وأذية. ثم نهضوا عنه، وقبيصة
يقول متمثلاً:

لعلك أن تستوخم الورد إن غدت ... كتائبنا في مازق الموت تمطر
فقال امرؤ القيس: لا، والله لا أستوخمه، فريداً ينكشف لك دجاها
عن فرسان كندة؛ وكتائب حمير! ولقد كان ذكر غير هذا أولى بي،
إذ كنت نازلاً بريعي، ومتحرماً بزمامي، ولكنك قلت فأجبت، قال
قبيصة إن ما نتوقع فوق قدر المعاتبة والإعتاب. قال امرؤ القيس:
فهو ذاك، وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص:

يا ذا المخوفنا بقتل أبيه إذلاً وحينا
هلا على حجر بن أم قطام تبكي لا علينا
نحن الألى فاجمع جموعك ثم وجههم إلينا
نحمي حقيقتنا وبعض القوم يسقط بين بينا

حسين علي الهنداوي

أشكال خطاب النثر الفني الجاهلي



الباب الخامس

فن الوصايا

في العصر الجاهلي

أ - الوصية الجاهلية رؤى وأبعاد:

قول حكيم صادر عن مجرب يوجه إلى من يحب لينتفع به، وهي من ألوان النثر التي عرفها العرب في الجاهلية، وهي قطعة نثرية تشبه الخطبة تحمل في طياتها تجربة من التجارب تقال على شكل حكم ونصائح قد تكون من أب إلى أبنائه ، أو من أم إلى ابنتها ، أو من زعيم إلى أفراد قبيلته ، كوصية أمامه بنت الحارث ابنتها أم إياس عند زواجها . وتلتقي الوصايا بالحكم والأمثال لتضمنها كثيراً من تلك الأقوال الموجزة النابعة من التجربة، حتى لكأن الوصايا أحياناً قائمة على جملة من الحكم والأقوال المأثورة. وتروي هذه الوصايا عادة على ألسنة طوائف من الحكماء والمعمرين، الذين عرفوا بكثرة تجاربهم وخبرتهم في الحياة، من أمثال: ذي الإصبع

العدواني، وزهير بن جناب الكلبى، وعامر بن الظرب العدواني، وحصن بن حذيفة الفزاري. ومن النساء: أمامه بنت الحارث. ويغلب على الظن أن هذه الوصايا جميعاً رويت بالمعنى، ولكنها لا تخلو من بعض العبارات الأصلية المحفوظة، ولاسيما في الوصايا القصيرة. وتقدم الوصايا صورة عن هذا الفن النثري، لأن من رووها أو حفظوها قد راعوا أصولها وتقاليدها. وقد تعددت الوصايا في العصر الجاهلي وتنوعت أغراضها على وفق الحدث المرتبط بها. واختلفت عن غيرها من صنوف الأدب، لأنها كانت نابعة من تجارب الإنسان وخبرته في الحياة. فالموصي يضع في وصيته عصارة فكره وخلاصة تجاربه في الحياة. فنراه يأتي في وصيته بجمل قصيرة مركزة تحمل أبلغ المعاني، وأسمى القيم. وصل إلينا من تلك الوصايا بعضه موجه إلى الأبناء والبنات، وبعضه الآخر موجه إلى أفراد من القبيلة. فالوصية بمعنى النصح والإرشاد والتوجيه، وهي قول بليغ مؤثر، ويتضمن حثاً على سلوك طيب نافع، حثاً فيمن توجه إليه الوصية، ورغبة في رفعة شأنه وجلب الخير له. وعادة تكون من أولياء الأمور وبخاصة الأب والأم لأبنائهما عند حلول الشدائد، أو حدوث الأزمات أو الإحساس بدنو

الفراق، وهي نتيجة الخبرة الطويلة والملاحظة الدقيقة، والعقل الواعي والتفكير السليم ويدفع إليها المودة الصادقة والحب العميق.

ب- أقسام الوصايا:

فيمكن تقسيم الوصايا إلى :

١- وصايا الملوك إلى أولياء العهد أو من يقوم مقامهم.

٢- وصايا الحكماء إلى أبنائهم وأبناء العشيرة وغيرهم.

٣- وصايا الآباء للأبناء وأبناء الأبناء.

٤- وصايا الهداء (الزواج) ..

٥- وصايا السفر والمسافرين.

٦- وصايا الحرب.

٧- وصايا دينية :

٨- وصايا اجتماعية: كالوصايا المتعلقة بالزواج، والمال،

والصداقة، والعناية بالخيل وإكرامها، ومكارم الأخلاق كتهذيب

اللسان، وتربية النفس، والحث على الصدق، والبذل والجود... ومن

شواهدا وصية ذي الإصبع العدواني - لما احتضر - لابنه أسيد.

٩- وصايا سياسية: تكون بين الراعي والرعية، والدعوة إلى

الحرب، والدعوة إلى السلم والتحذير من التنازع.

١٠- وصايا الزواج :

١١- وصايا السراق واللصوص

١٢- وصايا الآباء للأبناء

ج- أجزاء الوصية الجاهلية:

تتألف الوصية من

أ- المقدمة: وفيها تمهيد وتهيئة لقبولها.

ب- الموضوع: وفيه عرض للأفكار في وضوح وإقناع هادىء للموصى له.

ج- الخاتمة: وفيها إجمال موجز لهدف الوصية.

ولقد رأينا ذلك في (وصية أمامه بنت الحارث لابنتها عند زواجها)

د- **ميزات الوصية الجاهلية** تتميز الوصية الجاهلية عن غيرها من

فنون النثر الجاهلي بما يلي:

أ- وضوح الألفاظ، وضوحا تاما من غير إبهام.

ب- قصر الجمل وإيجازها بحيث تؤدي المعنى بشكل موجز.

ج- الإطناب بالترداد والترادف والتعليل حين يحتاج الموقف للشرح.

د- تنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء.

هـ- الإقناع بترتيب الأفكار وتفصيلها وبيان أسبابها.

و- التنعيم الداخلي والإيقاع الموسيقي الجميل

وقد تجلى كل ذلك في وصية أمامه لابنتها

ه- الفرق بين الوصية والخطبة الجاهليتين:

والفرق بين الوصية والخطبة أن الخطبة هي فن مخاطبة الناس جميعا لاستمالتهم وإقناعه ، أما الوصية فهي قول حكيم لإنسان مجرب يوصي به من يحب لينتفع به في حياته. وتمتاز الوصايا في العصر الجاهلي بجمالها ، وتناسب جملها ورقتها .

و- نماذج من الوصايا الجاهلية:**١- وصية عمرو بن كلثوم :**

جمع عمرو بن كلثوم بنيه حينما حضرته الوفاة ، وكان قد عاش مائة وخمسين سنة على ما يروى فقال : " يا بَنِيَّ ، قَدْ بَلَغْتُ مِنْ الْعُمْرِ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنْ آبَائِي ، وَلَا بَدَأُ أَنْ يَنْزَلَ بِي مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْمَوْتِ . وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا عَيَّرْتُ أَحَدًا بِشَيْءٍ إِلَّا عَيَّرْتُ بِمِثْلِهِ ، إِنْ كَانَ حَقًّا فَحَقًّا ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا فَبَاطِلًا ، وَمَنْ سَبَّ سَبًّا . فَكُفُّوا عَنِ الشَّتْمِ ، فَإِنَّهُ أَسْلَمَ لَكُمْ ، وَأَحْسِنُوا جِوَارِكُمْ ، يَحْسَنُ ثَنَاؤُكُمْ ، وَإِذَا حَدَّثْتُمْ فَعُوا ، وَإِذَا حَدَّثْتُمْ فَأَوْجِزُوا ، فَإِنَّ مَعَ الْإِكْثَارِ يَكُونُ الْأَهْذَارُ . أَشْجَعُ الْقَوْمِ الْعَطُوفُ عِنْدَ الْكُرِّ ، كَمَا أَنَّ أَكْرَمَ الْمَنَائِي الْقَتْلُ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا رَوِيَّةَ لَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَلَا مَنْ إِذَا عُوْتِبَ لَمْ يُعْتَبَ ، وَلَا تَنْزَوِجُوا فِي حَيْكَمٍ ، فَإِنَّهُ يُوْدِي إِلَى قُبْحِ الْبُغْضِ " .)

٢ - وصية ذو الأصبع العدواني :

ذو الأصبع العدواني هو حرثان بن الحارث ناثر وشاعر من العصر الجاهلي ينتمي لقبيلة عدوان المضرية وسمي ذو الأصبع لوجود أصبع زائدة برجله ، وكان من حكماء العرب ، حين حضرته الوفاة أوصى ابنه أسيداً ببعض الوصايا التي تعينهي إحنه ومحنه ومنها: " يا بُني ، إن أباك قد فَنِيَ وهو حيٌ ، وعاشَ حتى سَمِمَ العيشَ . وإني مُوصيكُ بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته : ألن جانبك لقومك يُحبُّوكَ ، وتواضع لهم يرفعوكَ ، وابسط وجهك يُطيعوكَ ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوكَ ، وأكرم صغارهم كما تُكرم كبارهم ، يُكرمك كبارهم ، ويكبرُ على مودتك صغارهم ، واسمخ بمالك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وصن وجهك ، عن مسألة أحدٍ شيئاً ، فبذلك يتمُّ سُودُوكَ " .

والوصية وإن كانت تخرج لشخص واحد، فهي يمكن أن تفيد مجتمعا كاملا ويمكن عدها مرجعا يفيد كل من يحتاج إلى النصح والإرشاد. والطابع العام للوصايا الجاهلية هو الأسلوب المرسل، الذي يترك فيه الموصى نفسه على سجيتها، دون تنميق أو زخرفة، مؤثراً وضوح العبارات، ورشاقة التراكيب، وقصر الجمل بما

يحقق المناسبة بين المعنى واللفظ وطبيعة المقام الذي تقال فيه الوصية.

٣- وصية عامر بن الظرب لقومه:

ومنها: "يا معشر عدوان: لا تشمتوا بالذلة، ولا تفرحوا بالعزة، فبكل عيش يعيش الفقير مع الغني، ومن يرَ يوماً يُرَ به، وأعدوا لكل أمر جوابه، إن مع السفاهة الندم، والعقوبة نكال، وفيها ذمامة، ولليد العليا العقوبة، وإذا شئت وجدت مثلك، إن عليك كما أن لك، وللكثره الرعب، وللصبر الغلبة، ومن طلب شيئا وجده، وإن لم يجده أوشك أن يقع قريباً منه".

٤- وصية زوجة عوف بن ملحم الشيباني لابنتها :

حينما زفت إلى زوجها الحارث بن عمرو ملك كندة، وفيها تقول: "أي بنية، إن الوصية لو تركت لفضل أدب؛ تركت لذلك منك؛ ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل، أي بنية إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أمة يكن لك عبداً. يا بنية: احملني عني عشر خصال تكن لك نخرًا وذكرًا، الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح؛ ولا يشم منك إلا أطيب ريح؛ والتعهد

لوقت طعامه؛ والهدوء عند منامه؛ فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله؛ فإن الاحتفاظ بالمال حسن التدبير، والإرعاء على الحشم والعيال جميل حسن التقدير، ولا تفشي له سرًا، ولا تعصي له أمرًا؛ فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره، ثم اتقي -مع ذلك- الفرح إن كان ترحًا، والاكنتاب عنده إن كان فرحًا، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا، يكن أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما تكونين له مرافقة، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت، والله يخير لك".

الباب السادس

سجع الكهان

في العصر الجاهلي

أ - السجع الجاهلي رؤى وأبعاد :

هو فن من فنون النثر يعتمد مجموعة من الجمل المترادفة والمتوازنة والمتزاوجة يستخدمها الكاهن الذي يدعي معرفة الغيب في قضية من القضايا التي تعترض فردا أو جماعة ويزعم هذا الكاهن أنه ينطق باسم الآلهة ، وأن الجن مسخرة له يحركها كيفما أراد ، وكانت في الجاهلية طائفة تزعم أنها تطلع على الغيب، وتعرف ما يأتي به الغد بما يلقي إليها توابعها من الجن، وكان واحدا يسمي كاهناً كما يسمي تابعه الذي يوحي إليه باسم "الرئي" وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم؛ فكانت لهم قداسة دينية، وكانوا يلجؤون إليهم في كل شؤونهم، وقد يتخذونهم حكاماً في خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم بن

عبد مناف، وأمّية بن عبد شمس، واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعي، وقد نفر هاشمًا على أمّية. وكانوا يسثيرونهم ويصدرون عن آرائهم في كثير من شؤونهم كوفاء زوجة، أو قتل رجل، أو نحر ناقة، أو قعود عن نصره أحلاف، أو نهوض لحرب؛ ففي أخبار بني أسد أن حجرًا أبا امرئ القيس رَقَّ لهم؛ فبعث في إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة، فقال لبني أسد: "يا عبادي، قالوا: لبيك ربنا، قال: من الملك الأصهب، الغلاب غير المغلَّب، في الإبل كأنها الرِّبْرِب، لا يعلق رأسه الصَّخَب، هذا دمه ينثعب، وهذا غدًا أول من يسلب، قالوا: من هو يا ربنا؟ قال: لولا أن تجيش نفس جاشية، لأخبرتكم أنه حجر ضاحية. فركبوا كل صعب وذلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عكر حجر فهجموا على قبته" وقتلوه. وكثيرًا ما كانوا يندرون قبائلهم بوقوع غزو غير منتظر، كما كانوا كثيرًا ما يفسرون رؤاهم وأحلامهم.

فمنزلة كهانهم في الجاهلية كانت كبيرة؛ إذ كانوا يعتقدون أنه يوحى إليهم، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التي تجاورها، ومن ثم كان العرب يقصدون كثيرين منهم من مناطق بعيدة. ومما

يلاحظ أنهم كانوا يتكثرون في اليمن وفي بيوت عبادتها الوثنية، وخاصة من يتعمقون في القدم، ولعل في ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب، وعرب الشمال. وتلقانا في كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم، وقد يبالغ القصاص، فيرسمون لبعضهم صوراً خيالية؛ فمن ذلك أن شق بن الصعب كان شق إنسان أو شطره فله عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة، وأن سطيح بن ربيعة الذئبي لم يكن فيه عظم سوى جمجمته وأن وجهه كان في صدره ولم يكن له عنق، وربما كان أحذب. ومن كهانهم في أواخر العصر الجاهلي سواد بن قارب الدؤسيّ وقد أدرك الإسلام ودخل فيه، ومنهم المأمور الحارثي، كاهن بني الحارث بن كعب، وخنافر الحميري، وكان يقول: إنه أسلم بمشورة تابعه "شصار". وأكهنهم عزيّ سلّمة، ومن قوله: "والأرض والسماء، والعقاب والصقعاء، واقعة ببقعاء، لقد نفر المجد بني العشاء للمجد والسناء(ونجد بجانب هؤلاء الكهان جماعة من الكاهنات، وربما كن في الأصل من النساء اللاتي يهبن أنفسهن للآلهة ومعابدها. ومن أشهرها الشعثاء وكاهنة ذي الخلسة والكاهنة السعدية والزرقاء بنت زهير والغيطلة القرشية وزبراء كاهنة بني رثام، ويروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت: "واللوح الخافق والليل

الغاسق والصبح الشارق والنجم الطارق والمزن الوادق، إن شجر الوادي ليأدو خَتْلًا، ويحرق أنيابًا عصلًا، وإن صخر الطود لينذر ثكلًا، لا تجدون عنه مَعْلًا". ومعنى ذلك أنه وجد في العصر الجاهلي سجع كان يقوله الكهان، وقد اختلط الأمر على بعض قريش في أول نزول الذكر الحكيم؛ فقرنوه بسجع كهنتهم ورد عليهم القرآن الكريم بمثل قوله جل وعز: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَذَكَّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ، وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. ومما يدل على أن كهنتهم كانوا يسجعون؛ بل كانوا لا يتكلمون إلا بالسجع، الحديث المروي عن أبي هريرة؛ فقد حدث أنه: "اقتتلت امرأتان من هذيل؛ فرمت إحداهما الأخرى بحجر، فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقضى رسول الله أن دية جنيها غرة: عبد أو وليدة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها... فقال حمل بن النابغة الهذلي: يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل، فمثل ذلك يطل؛ فقال رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنما هذا من إخوان الكهان، من أجل سجعه الذي سجع ومن ثم كان من أهم ما يميز أسجاعهم عدم وضوح الدلالة

وأن يكثر فيها الاختلاف والتأويل. وليس هذا كل ما يلاحظ على السجع الذي يضاف إليهم؛ فإنه يلاحظ عليه أيضاً كثرة الأقسام والأيمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجي والصبح المنير والأشجار والبحار وكثير من الطير وفي ذلك ما يدل على اعتقادهم في هذه الأشياء وأن بها قوى وأرواحاً خفية، ومن أجل ذلك يحلفون بها، ليؤكدوا كلامهم وليبلغوا ما يريدون من التأثير في نفوس هؤلاء الوثنيين. وهذا السجع الديني كان يقابله، كما قدمنا، سجع آخر في خطابتهم بل في كلامهم وأمثالهم التي دارت بينهم. وكانت عند العرب في العصر الجاهلي طائفة تدعي التنبؤ ومعرفة المغيبات، وأنها تنطق عن آلهتهم بما سخر لها من الجن التي تسترق لها السمع، فتكشف لها الحجب، وما تأتي به ألواح الغد. وكانوا يسمونها الكهان، وواحدهم يمسي كاهنا، أما تابعه من الجن فيسمى رثيا، وكانوا يفرعون إليهم لاستشارتهم في الأمور الجلى كإعلان حرب، أو قعود عن نصره أحلاف، أو كشف قتل إنسان أو ناقة، أو خلال بنذر من النذور لأربابهم لا يستطيعون أداءه. وقد يلجأون إليهم للحكم بينهم أو للمنافرة، ممثلين لأحكامهم فهي لا تنقض ولا ترد، وقد يطلبون إليهم تعبير رؤاهم وأحلامهم، وهم بدورهم قد يتنبئون لأقوامهم بوقوع كارثة، أو

حدوث غزو . ولعل في ذلك كله ما يدل على أنهم كانوا يتمتعون بنفوذ واسع، ولم يكن لهذا النفوذ حدود قبلية، فكثيرا ما يسيطر الكاهن على مجموعة من القبائل بكهنته، فتصدر عن رأيه، وقد تتخطى شهرته إقليمه، فتقصده العرب من أقاليم نائية، ككثير من كهان اليمن، ولعلنا لا نبعد إذا قلنا: إن جمهور كهانهم كانوا يمنيين، وخاصة من يرجع بهم القصاص إلى الحقب الأولى من العصر الجاهلي، ومن أشهرهم سطيح الذئبي، وشق بن مصعب الأنماري، وإليهما فزع نصر بن ربيعة ملك اليمن في تفسير رؤيا له ، وقد أخرجهما القصاص، ورواة الأخبار من عالم الواقع إلى عالم الخيال، فقالوا: إن سطيحا لم يكن فيه عظم سوى جمجمته، وإن وجهه كان في صدره ولم يكن له عتق، ولعله كان أحذب، أما شق فقالوا: إنه كان شق أو نصف إنسان له عين واحدة، ويد واحدة ورجل واحدة . ومن كهانهم المشهورين المأمور الحارثي، وكان من فرسان مزجج، وكانت بأمره تتقدم وتتأخر ، وخنافر الحميري، وكان يزعم أنه دخل الإسلام بمشورة رثيه شصار ، وعوف بن ربيعة الأسدي، وهو الذي أشار على قومه بالثورة على حجر بن الحارث الكندي وقتله ، وسلمة الخزاعي الذي تنافر إليه هاشم بن عبد مناف، وأميرة بن عبد شمس فنفر هاشما ، وسواد

بن قارب الدوسي، وقد أدرك الإسلام ، وعزى سلمة وهو أكههم جميعا ، ووجد بجانب هؤلاء الكهنة بعض نسوة عرفن بالتكهن من مثل الشعثاء الكاهنة ، وزبراء ، وكاهنة ذي الخلصة ، والكاهنة السعدية والزرقاء بنت زهير، والغيطلة القرشية . وروت كتب الأدب والتاريخ طائفة من أقوال هؤلاء الكهان، والكاهنات ، وخطابهم، وكلها تلتزم السجع، وما نشك في أن أكثر ما روي عنهم مصنوع، وإن من الخطأ أن يعتمد باحث على تلك المرويات، ويظنها صحيحة النسبة إلى من قيلت على ألسنتهم، لسبب طبيعي، وهو أنها لم تكن مدونة ولا مكتوبة، ومن مصعب أن نحفظ بها ذاكرة الرواة نحو قرنين من الزمان أو أكثر، فلا تبدل فيها ولا تحرف، حتى يخرج العصر العباسي فيدونها اللغويين والإخباريون. على أننا نستطيع بعد أن نرفض ما يروى من أقوالهم، وخطبهم أن نعود فنظن ظنا أنهم كانوا يسجعون في خطابتهم، وإلا لما استقر عند جميع من نلوهم بعض الأقوال، والخطب أنهم كانوا يعتمدون على السجع في كهانتهم، ومن ثم صاغوا ما نسبوه إليهم من كلام سجعا خالصا، ولعل هذا السجع في كلامهم هو الذي دفع بعض المشركين من قريش إلى الظن بأن ما يتلوه الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن، إنما هو من

كلام الكهان، فقال جل وعز ينقض دعواهم الباطلة : { فَذَكَّرْ فَمَا
 أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ } [وقال: { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ
 كَرِيمٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ، وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا
 مَا تَذَكَّرُونَ } [، وقد جاء في الحديث النبوي أن
 الرسول صلوات الله عليه، قضى على رجل في جنين قتلت أمه
 بديعة، فقال الرجل: "أأدى" "أأغرم" من لا شرب ولا أكل، ولا صاح ولا
 استهل، أليس مثل ذلك يطل ؟ فقال رسول الله عليه السلام: "إنما
 هذا من إخوان الكهان، من أجل سجعه الذي سجع" ، وفي رواية
 أنه قال له: أسجع كسجع الكهان؟ وفي هذا الحديث أكبر الدلالة،
 وأعظمها على أن الكهان كانوا يستخدمون السجع في كهانتهم،
 ويقول الجاحظ: "كان حازي "كاهن" جهينة، وشق وسطيح وعزى
 سلمة، وأشباههم يتكهنون، ويحكمون بالأسجاع، ويروى من سجع
 عزى سلمة قوله: "والأرض والسماء، والعقاب والصقعاء، واقعة
 ببقعاء، لقد نفر المجد بني العشاء، المجد والسناء" . وإذا صحت
 هذه الكلمة لعزى سلمة، فإنها ترينا أن الكهان كانوا يعتمدون في
 كهانتهم على السجع، كما كانوا يعتمدون على مثل هذه الأقسام،
 والأيمان بالأرض والسماء، والطير والشمس، وما يتصل بذلك من
 القمر والنجوم، والكواكب، والأشجار والرياح، وكل ما يظنون أنه

يحمل قوى خفية، وأيضا فإنهم كانوا يعتمدون على الإغراب في ألفاظهم للإيهام، والتأثير في نفوس السامعين. وهذه هي نفس السمات العامة التي يمكن أن نستنبطها من خلال النصوص الكثيرة التي رويت من سجعهم، ونحن نرى هذه السمات واضحة في هذه القطعة الصغيرة التي رواها الجاحظ لعزى سلمة، وهي سمات طبيعية، إذ كانوا يلجؤون إلى الإيهام في أحاديثهم وأقوالهم، وكانوا يعتمدون في هذا الإيهام على الأقسام، واللفظ الغريب ليتيح لهم ذلك ما يريدون من الوهم في أساليبهم، ومعاني كلامهم. وأكبر الظن أنهم كانوا يبالغون في ذلك حتى تنبهم معانيهم وتغمض دلالاتهم، فيكثر عند السامعين الفهم، ويكثر الاحتمال والتأويل، ولعلنا لا نبعد إذا زعمنا أن الكهان كانوا يبنون سجعهم في كثير من جوانبه على الرمز، فإن كهانتهم كانت تقتضي أن يختاروا ألفاظا موهمة توعظ بما يريدون دون أن تفصح -في كثير من أحوالها- عن دلالة بينه، ومهما يكن فإن حرقة الكهان في هذا العصر أثمرت ضربا طريفا من السجع كان يتكى على الأقسام، والأيمان الموهمة والألفاظ الغريبة. وأكبر الظن أن فيما قدمنا من حديث عن سجع الكهان، وخطابة الجاهليين وما كان من أمثالهم ما يدل دلالة صريحة على أن ما سلم لنا من بقايا نثرهم، إنما هو

شظايا متناثرة من صناعة بليغة كانت تستفيد من أصحابها آمادا واسعة من التعب، والعناء والجهد، والنشاط. ولقد كانت عند العرب في العصر الجاهلي طائفة تدعي التنبؤ ومعرفة المغيبات، وأنها تنطق عن آلهتم بما سخر لها من الجن التي تسترق لها السمع، فتكشف لها الحجب، وما تأتي به ألواح الغد. وكانوا يسمونها الكهان، وواحدهم يسمي كاهنا، أما تابعه من الجن فيسمى رثيا، وكانوا يفزعون إليهم لاستشارتهم في الأمور الجلى كإعلان حرب ، أو قعود عن نصره أحلاف ، أو كشف قتل إنسان أو ناقة ، أو خلال بنذر من النذور لأربابهم لا يستطيعون أداءه . وقد يلجؤون إليهم للحكم بينهم أو للمنافرة ، ممثلين لأحكامهم فهي لا تنقض ولا ترد، وقد يطلبون إليهم تعبير رؤاهم وأحلامهم ، وهم بدورهم قد يتنبئون لأقوامهم بوقوع كارثة، أو حدوث غزو . ولعل في ذلك كله ما يدل على أنهم كانوا يتمتعون بنفوذ واسع، ولم يكن لهذا النفوذ حدود قبلية، فكثيرا ما يسيطر الكاهن على مجموعة من القبائل بكهانتة، فتصدر عن رأيه، وقد تتخطى شهرته إقليمه، فتقصده العرب من أقاليم نائية، ككثير من كهان اليمن، ولعلنا لا نبعد إذا قلنا: إن جمهور كهانهم كانوا يمينيين، وخاصة من يرجع بهم القصاص إلى الحقب الأولى من العصر الجاهلي، ومن أشهرهم

سطيح الذئبي، وشق بن مصعب الأنماري، وإليهما فزع نصر بن ربيعة ملك اليمن في تفسير رؤيا له، وقد أخرجهما القصاص، ورواة الأخبار من عالم الواقع إلى عالم الخيال، فقالوا: إن سطيحا لم يكن فيه عظم سوى جمجمته، وإن وجهه كان في صدره ولم يكن له عتق، ولعله كان أحذب، أما شق فقالوا: إنه كان شق أو نصف إنسان له عين واحدة، ويد واحدة ورجل واحدة. ومن كهانهم المشهورين المأمور الحارثي، وكان من فرسان مذبح، وكانت بأمره تتقدم وتتأخر، وخنافر الحميري، وكان يزعم أنه دخل الإسلام بمشورة رثيه شصار، وعوف بن ربيعة الأسدي، وهو الذي أشار على قومه بالثورة على حجر بن الحارث الكندي وقتله، وسلمة الخزاعي الذي تنافر إليه هاشم بن عبد مناف، وأمية بن عبد شمس فنفر هاشما، وسواد بن قارب الدوسي، وقد أدرك الإسلام، وعزى سلمة وهو أكهنهم جميعا، ووجد بجانب هؤلاء الكهنة بعض نسوة عرفن بالتكهن من مثل الشعثاء الكاهنة، وزبراء، وكاهنة ذي الخلصة، والكاهنة السعدية والزرقاء بنت زهير، والغيطلة القرشية. وروت كتب الأدب والتاريخ طائفة من أقوال هؤلاء الكهان، والكاهنات وخطابهم، وكلها تلتزم السجع، وما نشك في أن أكثر ما روي عنهم مصنوع، ويقول الجاحظ: "كان حازي كاهن"

جهينة، وشق وسطيح وعزى سلمة، وأشباههم يتكهنون، ويحكمون بالأسجاع، ويروى من سجع عزى سلمة قوله: "والأرض والسماء، والعقاب والصقعاء، واقعة ببقعاء، لقد نفر المجد بني العشراء، المجد والسناء". وإذا صحت هذه الكلمة لعزى سلمة، فإنها ترينا أن الكهان كانوا يعتمدون في كهانتهم على السجع، كما كانوا يعتمدون على مثل هذه الأقسام، والأيمان بالأرض والسماء، والطيور والشمس، وما يتصل بذلك من القمر والنجوم، والكواكب، والأشجار والرياح، وكل ما يظنون أنه يحمل قوى خفية، وأيضا فإنهم كانوا يعتمدون على الإغراب في ألفاظهم للإيهام، والتأثير في نفوس السامعين. وهذه هي نفس السمات العامة التي يمكن أن نستنبطها من خلال النصوص الكثيرة التي رويت من سجعهم، ونحن نرى هذه السمات واضحة في هذه القطعة الصغيرة التي رواها الجاحظ لعزى سلمة، وهي سمات طبيعية، إذ كانوا يلجؤون إلى الإيهام في أحاديثهم وأقوالهم، وكانوا يعتمدون في هذا الإيهام على الأقسام، واللفظ الغريب ليتيح لهم ذلك ما يريدون من الوهم في أساليبهم، ومعاني كلامهم. وأكبر الظن أنهم كانوا يبالغون في ذلك حتى تنبهم معانيهم وتغمض دلالاتهم، فيكثر عند السامعين الفهم، ويكثر الاحتمال والتأويل، ولعلنا لا نبعد إذا زعمنا أن الكهان كانوا يبنون

سجعهم في كثير من جوانبه على الرمز، فإن كهانتهم كانت تقتضي أن يختاروا ألفاظاً موهمة توعظ بما يريدون دون أن تفصح -في كثير من أحوالها- عن دلالة بينه، ومهما يكن فإن حرقة الكهان في هذا العصر أثمرت ضرباً طريفاً من السجع كان يتكئ على الأقسام، والأيمان الموهمة والألفاظ الغريبة. وأكبر الظن أن فيما قدمنا من حديث عن سجع الكهان، وخطابة الجاهليين وما كان من أمثالهم ما يدل دلالة صريحة على أن ما سلم لنا من بقايا نثرهم، إنما هو شظايا متناثرة من صناعة بليغة كانت تستفيد من أصحابها آماداً واسعة من التعب، والعناء والجهد، والنشاط. وكانت الكهانة موجودة عند العرب في الجاهلية، وكان للكهان قداسة دينية، ونفوذ كبير، إذ كانوا يوهمون العامة بأنهم يعرفون الغيب عن طريق ما يتلقون من الجن، وكان الناس يتجهون إليهم يحكمونهم في المنازعات. والمنافرات. ويستشيرونهم في أمورهم وبخاصة المستقبلية. ويقصون عليهم أحلامهم لكي يفسروها لهم. وأحياناً كان الكهان يندرون بعض القوم بأحداث تقع لهم. ولم تكن الكهانة مقصورة على الرجال، بل كان هناك نساء كاهنات كذلك. ومن أشهر الكهان: شق أنمار. وتحكي الأساطير عن خلقته أنه كان شق إنسان له عين واحدة. ويد واحدة ورجل واحدة. ومنهم

سطيح الذئبي : ويقولون عنه إنه لم يكن فيه عظم سوى جمجمته؛ وأن وجهه كان في صدره؛ ولم يكن له عنق. ومنهم المأمور الحارثي: كاهن بني الحارث بن كعب، وعزى سلمة. ومن أشهر الكاهنات: طريفة الكاهنة: وكانت باليمن وفاطمة الخثعمية: وكانت بمكة، والزرقاء بنت زهير، وزبراء كاهنة بني رثام. وكان الكهان في أحاديثهم يعمدون غالبًا إلى سجع مصطنع، فيه غموض وإبهام، وكأنما كانوا يقصدون زيادة التأثير في السامعين، وإلهاءهم عن التتبع لما يلقي إليهم من الأخبار التي كانت في منتهى الغرابة والعجب. ومما ورد لهم ما يروى أن حجراً أبا امرئ القيس رق لبني أسد، فبعث في أثرهم؛ فأقبلوا حتى إذا كان على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم وهو عوف بن ربيعة فقال لبني أسد: "يا عبادي! قالوا: لبيك ربنا، قال: من الملك الأصهب، الغلاب غير المغلب، في الإبل كأنها الريرب، لا يعلق رأسه الصخب، هذا دمه ينشعب، وهذا غدًا أول من يسلب. قالوا: من هو يا ربنا؟ قال: لولا أن تجيش نفس جاشية، لأخبرتكم أنه حجر صاحبة، فركبوا كل صعب وذلول، فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حجر فهجموا على قبته وقتلوه". ويروى أن شقاً وسطيحاً اتفقا على تعبير رؤيا رآها ربيعة بن نصر اللخمي أحد ملوك

العرب، فأخبره سطيح بإغارة الحبشة على بلاد اليمن بسجع متكلف يبعث على التردد في تصديقه، إذ قال: "أحلف بما بين الحرتين من حنش، ليهبطن أرضكم الحبش، وليملكن ما بين أبين إلى جرش". وقال شق: "أحلف بين الحرتين من إنسان ليهبطن أرضكم السودان، وليملكن ما بين أبين إلى نجران". ويقال إن زبراء أنذرت قومها غارة عليهم، فقالت: "واللوح الخافق والليل الغاسق، والصبح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوادق، إن شجر الوادي ليأدوا ختلاً، ويحرق أنياباً عصلاً، وإن صخر الطود لينذر ثكلاً، ولا تجدون عنه معللاً". ومن المؤكد أن الكهان كانوا يسجعون في كلامهم بمثل هذا السجع بدليل أنهم لما سمعوا القرآن ظنوه من هذا القبيل، فرد الله زعمهم بقوله تعالى: { فَذَكَّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ } [] . وقوله تعالى: { وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ، وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ } [] ، وغير ذلك من الآيات. وظاهر من نماذج نثرهم أن الكهان كانوا يستعملون السجع المتكلف الغامض، وفي جمل قصيرة، وغير واضحة المعنى، لكي تتحير الأذهان في فهم المقصود منها وأغلب الظن، بل يكاد يكون من المؤكد أنهم لم يكونوا يدركون حقيقة ما يقولون فكانوا يأتون بالألفاظ. ويرصفونها بعضها بجانب بعض

بدون وعي تام لمعانيها، ما دام السجع موجودا فيها، ويكتنفها الغموض والإبهام، مكتفين بالإيماء والتلميح، متخذين من حال مخاطبيهم النفسية ما يساعدهم على ذلك، كما يفعل ضاربو الرمل والحصى بيننا الآن.

ب - أشهر الأسجاع في الجاهلية :

ومن أشهر المتكهنين في الجاهلية : سطيح الذئبي ،والمأمور الحارثي ، وخنافر الحميري ، و عوف بن ربيعة الأسدي ، ومسلمة الخزاعي . و شق الأنماري، وسلمة بن أبي حية، المشهور باسم غزى سلمة، وعوف الأسدي، .بل كان فيهم نساء كاهنات أيضاً، من أمثال: فاطمة الخثعمية، وطريفة اليمينية، وزبراء.

ج - موقف العرب من الكهان :

والكهّان عند العرب الجاهليين طائفة ذات قداسة دينية، وسلطان كبير لدى القبائل، شأنهم شأن الحكام في المنافرات. وكانوا يزعمون الاطلاع على الغيب، وأن لكل منهم رئياً - أي صاحباً من الجن - يعرف الكاهن عن طريقه ما سيكون من أمور. وكان الناس يتوافدون على هؤلاء الكهّان من مختلف الجهات فيحكمونهم في منازعاتهم، ويستشيرونهم في أمورهم الخاصة وما يزعمونه من أعمال، أو ما يرونه في منامهم من أحلام. وكانوا يستخدمون في

أحكامهم وأقوالهم ضرباً من النثر المسجوع عرفوا به، ويلاحظ في نصوص الكهان أنها تحمل طابع التكلف الشديد في سجعها ولهذا لا يطمأن إليها كلها، فريما شاب بعضها الوضع والنحل، وربما كان بعضها محفوظاً صحيحاً، لقصره وإيجازه.

د - خصائص أسجاع الكهان :

ومن خصائص أسجاع الكهان أنها - في جملتها - كلام عام، لا يرشد السامع إلى حقائق جلية، وإنما يضعه في الغموض والإبهام، باصطناع السجع، والإيماء، وقصر الجمل لإلهاء السامع عن تتبع ما يلقي إليه من الأخبار العربية، وجعله في حالة نفسية مضطربة، تساعد الكاهن على الوصول إلى ما يريد، بكل سهولة ويسر، ويكون المخاطب، بتلك الإشارات الغامضة، والألفاظ المبهمة، والأقسام المؤكدة، والأسجاع المنمقة، مستعداً لقبول كل ما يقال له، بلا جدال أو اعتراض، وتأويل ما يسمعه بحسب حالته ومدى فهمه.

هـ - موقف القرآن الكريم من الكهان :

النبوي الشريف الذهاب الى الكهان ونفى القرآن الكريم صفة الكهانة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ،

حسين علي الهنداوي

أشكال خطاب النثر الفني الجاهلي



الباب السابع

فن القصص

في العصر الجاهلي

أ - القصة العربية الجاهلية رؤى وأبعاد :

تعد القصص من فنون النثر الجاهلي وما يتصل منها بسبب، كالأسمار، والحكايات، والأساطير، التي تتناثر في كتب الأدب والتاريخ والأمثال، والتفسير، وكتب الشواهد النحوية والبلاغية، ومؤلفات الشراح مما يؤلف ذخيرة قصصية غزيرة، تمثل في مضمونها جوانب من المجتمع العربي في العصر الجاهلي، أو ما هو قريب منه، إذا صحت نسبتها إلى ذلك العصر. ولم تكن قصص العرب الجاهليين تحمل في طياتها أكثر من أحاديث السنة، وأيام الحروب والوقائع كيوم داحس والغبراء ويوم ذي قار، تحمل هذه القصص الكثير من الخرافات والأساطير وقد صور كتاب شرح النقائص لأبي عبيدة وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني أيام

العرب في حروبهم وسلمهم وقد حرّف الرواة الكثير من هذه القصص وزادوا فيها وأدخلوا فيها خرافات الحيوانات وقصص الجن ، والعمالقة والشياطين . وبقي الناس يتداولون هذه القصص عن طريق الرواية الشفهية، حتى بدأ تدوين بعضها في العصر الأموي، وتكفي الإشارة إلى أن أيام العرب وملاحمهم الحربية تؤلف ينبوعاً قوياً لتلك القصص، وقد دونها أبو عبيدة في شرحه لنقائض جرير والفرزدق. ومن هذا التراث القصصي أيضاً ما يتصل بملوك المناذرة والغساسنة والدولة الحميرية، وغيرهم ممن سبقوهم أو عاصروهم، كالزباء أو زنبوبيا. ومنه أيضاً قصص المحبين وأخبارهم، وبعض الأساطير عن الحيوانات كقصة الحية والفأس في خبر المثل: «كيف أعاودك وهذا أثر فأسك؟». بالإضافة إلى قصص أخرى متناثرة في كتاب الأغاني وغيره عن عمرو بن كلثوم وربيعة بن مكرم، وعبد الله بن جدعان، وغيرهم. وكل ذلك من موروثة النثر، ولكنه لا يمثل أسلوب الجاهليين ولا صياغتهم.

ب - أنواع القصص الجاهلي :

١ - القصة الخرافية الجاهلية :

عرف العرب في جاهليتهم القصص التي تتحدث عن مخلوقات غير مرئية كالشياطين والغول والعنقاء وغيرها مما صنعه الخيال

الجاهلي أما خوفا من الطبيعة وغضبها أو إشباعا لتطلع إلى عالم آخر تطمح إليه النفس البشرية تعويضا لعقدة المكوث في الأرض وعدم معرفة ما في السماء وساعد في ذلك السحرة القادرين على القيام بتمثيل أعمال خارقة للعادة كالانمساخ أو تحويل المناديل البيضاء إلى حمام بطريقة بهلوانية وتتميز هذه الحكايات بترايط هذه الحوادث المشدودة فيها بطريقة واهية ضعيفة وهي جافة مقصورة على حادثة أو اثنتين وقد استمدت النساء العجائز والمرضعات من معين هذه القصص لإمتاع أطفالهن بنين وبنات .

وقد أولع العرب القدماء (بالعنقاء) (والهدرة) الحيوان الخرافي ذو تسعة رؤوس (والنتين) حارس الكنوز المتموضعة في بلاد اليمن وكذلك فكرة الصراع بين الإنسان والجن مع أنها قد ثبت وجودها من خلال نصوص القرآن الكريم والصراع مع الشياطين التي جعل منها العرب الجاهليون ذكورا وإناث على أننا مقتنعون بوجود الشياطين دون أن نراها كما ذكر لنا ذلك القرآن الكريم وقد قال الشاعر الجاهلي :

إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

حتى وصل بالعرب اليمنيين أن ذكروا أن الجن أقاموا لهم في منطقة وتار اليمنية مملكة يملؤها السحر حيث مدينة البرنز في

وحشة لأحد ولها وكذلك قصص اختطاف الجن لأطفال الأشراف من الناس أمثال عمرو بن جذيمة ملك الحيرة ولقيط بن زرارة سيد فزارة

٢ - القصة المثلية الجاهلية :

اختزل العرب الكثير من قصصهم الجاهلية في أمثال وحكم كانت من صميم التجربة وهذه الأمثال والحكم لم تترك جانبا من جوانب الحياة والمجتمع إلا وطرقته وتحدثت عنه من بين ثلاث آلاف وخمسمائة صيغة مثلية جمعها وشرحها الميداني تجد المئات ذات قصص وحكايات متنوعة كما في الصالة لقمان الحكيم وأكثم بن صيفي وزرقاء اليمامة

٣ - القصة التعليلية الجاهلية :

وهي قصة تتحدث عن التراث الديني الذي ينتشر على مساحة واسعة من أرض العرب حيث تعرض مظهر جبل أو انحدار واد أو نتوء صخرة أو تغور مغارة أو اكتشاف سبب تكوين مخلوق عجيب ففي وادي منى في مكة المكرمة اكتشف المذبح الذي كان يود أن يضحي نبينا إبراهيم بابنه إسماعيل عليه كتلة ذات شكل فريد وبجانبه شق في الصخر يمثل الحزة التي أحدثتها السكين التي استعملها سيدنا إبراهيم لمحاولة التضحية بولده امتثالا لأمر الله تعالى ، وكذلك قصة إيساف ونائلة اللذين زنيا في الكعبة المشرفة



ثم مسخا إلى ضبيين وقصة نصب رجل لأصنام في وادي منى تمثل الشيطان الأكبر الذي يرممه الحجاج في العصر الجاهلي وقصة قبر أبي رغال بين مكة المكرمة والطائف الذي يرممه المارة لأنه قاد الأعداء إلى بلاده وكذلك الصخرة التي كان يجلس عليها عنبرة في منطقة ذات الجواء وهي ما تزال موجودة إلى يومنا هذا أو قصتي طوق الحمامة وطوق الهدد المذكورتين في كتاب الحيوان للجاحظ وقصة غار حراء وغار ثور وهما حقيقتان الأول كان يتعبد فيه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم والثاني اختبأ فيه الرسول عندما هاجر مع أبي بكر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بعد أن لاحقهم المشركون وقصة مسخ طائفة من اليهود إلى قردة بسبب عصيانهم لأوامر الله تعالى وهناك قصة الصرح الذي بناه هامان بأمر من فرعون وقصور ثمود في وادي القرى وقصة خراب سد في اليمن وقلاع غمدان في اليمن وقصة قصر الخورنق المنيف في الحيرة والقصر اللامح الأبلق في واحة تيماء

٤ - القصة الغرامية الجاهلية :

لم يعهد العرب في جاهليتهم وجود قصص تتحدث عن الحب والغرام سواء منه العفيف أو الصريح دون تكريس معنى نوعي الحب بشكل ظاهرة فقد كانت حياة كثير من الشعراء قصصا كقصة

دار جلجلة الخليعة لامرئ القيس وقصة رحيل امرئ القيس إلى بلاد الروم لاستعادة ملكه وقصه عنتره ملحمة الحب والصراع الذي خلفه لونه الأسود .

٥ - قصص اللصوص وقطاع الطرق (الشطار) :

إن هذا النوع من القصص يسبب ميل الإنسان بشكل عام للغرائب المضحكة والعرب كغيرهم مالوا إلى هذا النوع من القصص وقد مال هذا النوع من القصص إلى الفكاهة المصبوغة بالجد وقصصه كثيرة ومدهشة .

٦ - القصة الجاهلية على لسان الحيوان :

يبدو أن العصر الجاهلي لم يخل من القصص على لسان الحيوان لإظهار عبرة أو حكمة أو للفكاهة والتندر كما في قصة ابن آوى والثعلب رمز المهارة والتيس والضبع رمز السذاجة وقصة الهدهد رمز الألمعية والعبقرية والذكاء وقصة الغراب رمز الحيلة وقصة الديك والنعامة رمز الخدوعين وقصة براقش تمثل إلى مرافقة الغبي

٧ - الحكاية التقوية الجاهلية:

هذا النوع من القصص التي كان يذكرها الدعاة النصارى الجوالون في الجاهلية في أسواق العرب ومواسمهم أمثال قس بن ساعدة

الذي لقيه الرسول محمد عليه الصلاة والسلام في شبابه في سوق عكاظ .

٨ - حكايات البدو الجاهلية:

وهي قصص وحكايات تتحدث عما يفعله البدو بعضهم ببعض في غزواتهم وغاراتهم عن خطف النساء وسرقة المواشي ومطاردة المغيرين يتسامرون بها في مجامعهم ونوادبهم ليلا وسهراتهم وقد يكون منها أعمال محاربين عنيفة اندفاعات قتالية وغاية هذه الحوادث تمجيد أصحاب هذه الوقائع ومنها حكايات حرب داحس والغبراء ومنها أيام العرب الكثيرة كيوم جبة ويوم الكلاب ويوم ذي قار وحرب البسوس والحديث عن مآثر البداوة من خلال كرم حاتم الطائي وبطولات عنتر العبيسي .

٩ - قصص الحمقى والأذكياء الطريفة الجاهلية:

وهي نوع من القصص يتحدث عن الأشخاص الحمقى والأذكياء والزوج المخدوع والمرأة الخائنة حيث تظهر في هذه القصص الطرفة كقصة هبنقة الشخصية ذات الجانبين الطريفيين شخصية معقدة وشخصية ذات حس سليم وشخصيات هذه القصص ساذجة مهرجة خبيثة .

١٠- بعض القصص الجاهلي:

أ- قصة المرقش الأكبر وصاحبتة أسماء بنت عوف:

وما كان من عشقه لها وهو غلام ومحاولته خطبتها من أبيها. واعتذار الأب له بحدائثة سنه وأنه لم يُعَرَف بعد بشجاعة. وما كان من انطلاق المرقش إلى بعض الملوك ومديحه له وبقائه عنده زمنًا، وفي هذه الأثناء أصاب عوفًا زمان شديد، فأتاه رجل من مراد، فأرغبه في المال، فزوجه ابنته على مائة من الإبل، ورحل بها إلى أهله. وقال إخوة المرقش: لا تخبروه بخبرها حين يرجع؛ بل قولوا له: إنها ماتت، وذبحوا لذلك كبشًا، أكلوا لحمه ودفنوا عظامه. فلما قدم المرقش قالوا له: إنها ماتت. ولم يلبث أن عرف الحقيقة بعد أن ظل مدة يعود قبر الكبش ويزوره. وخرج المرقش يطلب أسماء، وبعد مغامرات يتعرف على راعي زوجها، ويتوسل إليه أن يحدثها عنه، فيقول له: إني لا أستطيع أن أدنو منها؛ ولكن تأتيني جاريتها كل ليلة، فأحلب لها عنزًا، فتأتيها بلبنها. فقال له مرقش: خذ خاتمي هذا؛ فإذا حلبت فألقه في اللبن، فإنها ستعرفه، وإنك مصيب بذلك خيرًا لم يصبه راع قط إن أنت فعلت ذلك. فأخذ الراعي الخاتم. ولما راحت الجارية بالقدح وحلب لها العنز طرح الخاتم فيه؛ فانطلقت الجارية به وتركته بين يدي أسماء

فلما سكنت الرغوة أخذته فشربته، وكذلك كانت تصنع. ففرع الخاتم ثنيتها، فأخذته واستضاءت بالنار، فعرفته، فقالت للجارية: ما هذا الخاتم؟ قالت: ما لي به علم فأرسلتها إلى مولاها وهو بنجران، فأقبل فرعاً، فقال لها: لم دعوتني؟ قالت له: ادع عبدك راعي غنمك، فدعاه، فقالت: سله أين وجد هذا الخاتم، قال: وجدته مع رجل في كهف خَبَان، فقال لي: اطرحه في اللبن الذي تشربه أسماء، فإنك مصيب به خيراً، وما أخبرني من هو، ولقد تركته بآخر رمق. فقال لها زوجها: وما هذا الخاتم؟ قالت: خاتم مرقش، فأعجل الساعة في طلبه؛ فركب فرسه وحملها على فرس آخر وسارا حتى طرقاه من ليلتهما، فاحتملاه إلى أهلهما؛ فمات عند أسماء وقال قبل أن يموت:

سَرَى لَيْلًا خَيْالٌ مِنْ سُلَيْمِي فَأَرْقَنِي وَأَصْحَابِي هُجُودُ
 قَبِئْتُ أُدِيرُ أَمْرِي كُلَّ حَالٍ وَأَرْقُبُ أَهْلَهَا وَهُمْ بَعِيدُ
 سَكَنَ بَبْلَدَةٍ وَسَكَنْتُ أُخْرَى وَقُطِّعَتِ الْمَوَاتِقُ وَالْعُهُودُ
 فَمَا بَالِي أَفِي وَيُخَانُ عَهْدِي وَمَا بَالِي أَصَادُ وَلَا أَصِيدُ
 ثم مات فدفن في أرض مراد.

ب- الحية والفأس: وقد رواها الضبي على هذه الشاكلة. "زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما؛ فأجدبت بلادهما، وكان قريباً منهما واد فيه حية، قد حمته من كل أحد؛ فقال أحدهما للآخر: يا فلان، لو أتيت هذا الوادي المَكلى؛ فرعيت فيه إبلي وأصلحتها، فقال له أخوه: إني أخاف عليك الحية، ألا ترى أن أحداً لم يهبط ذاك الوادي إلا أهلكته، قال: فوالله لأهبطن. فهبط ذلك الوادي، فرعا إبله به زماناً، ثم إن الحية لدغته، فقتلته: فقال أخوه: ما في الحياة بعد أخي خير، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعن أخي؛ فهبط ذلك الوادي؛ فطلب الحية ليقتلها، فقالت: ألسنت ترى أني قتلت أخاك، فهل لك في الصلح، فأدعك بهذا الوادي، فتكون به، وأعطيك ما بقيت ديناراً في كل يوم. قال: أفاعلة أنت؟ قالت: نعم، قال: فإني أفعل؛ فحلف لها وأعطاها الموائيق، لا يضيئها. وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً؛ فكثر ماله ونمت إبله؛ حتى كان من أحسن الناس حالاً. ثم إنه ذكر أخاه، فقال: كيف ينفعني العيش، وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان؟ فعمد إلى فأس؛ فأحدها، ثم قعد لها، فمرت به، فتبعها، فضربها فأخطأها، ودخلت الجحر، فرمى الفأس بالجبل فوق فوق جحرها، فأثر فيه؛ فلما رأت ما فعل قطعت

عنه الدينار الذي كانت تعطيه، ولما رأى ذلك تخوف شرها وندم فقال لها: هل لك في أن نتواثق -نتعاهد- ونعود إلى ما كنا عليه؛ فقالت: كيف أعاهد؟ وهذا أثر فأسك وأنت فاجر، لا تبالي العهد. فكان حديث الحية والفأس مثلاً مشهوراً من أمثال العرب، قال نابغة بني ذبيان، من قصيدة يعاتب بها بني مرة:

وَإِنِّي لَأَلْقَى مِنْ ذَوِي الضِّغْنِ مِنْهُمْ بِلَا عَثْرَةٍ وَالنَّفْسُ لَا بُدَّ عَاثِرَةٍ
كَمَا لَقِيتِ ذَاتَ الصَّفَا مِنْ حَلِيفِهَا وَمَا انْفَكَّتِ الْأَمْثَالُ فِي النَّاسِ
سَائِرَةٍ..

ج-ومن قصص هبنقة

يروى أن هبنقة فقد بعيه فقال من وجد بعيري فله مئة بعير فقيل وما يمنعك من هذا إنكم لا تدرن ما حلاوة الوجدان ، روى هبنقة : قال رجل أردت النكاح فقلت لأشتري أول من يطلع علي ثم برأيه فكان أول من طلع هبنقة القيسي وتحتة قصبته فقلت له أريد النكاح فما تشير علي قال : البكر لك والثيب عليك وذات الولد لا تقربها واحذر جوادي لا ينفحك .

يروى أن هبنقة كان يرعى غنم أهله فيرعى السمان في العشب وينحي المهازيل فقيل له :ويحك ما تصنع ؟ قال : لا أفسد ما أصلحه الله ولا أصلح ما أفسده

حسين علي الهنداوي

أشكال خطاب النثر الفني الجاهلي



الباب الثامن

فن الرسائل

في العصر الجاهلي

أ - ماهية الرسالة الجاهلية:

الرسالة: كلام يرسل به عن بعد سميت بالصحيفة أو الكتاب أو الألوكة تنقل مضمون كتاب وظيفتها الفائدة والمتعة الفنية والجمالية وقد تعددت أشكالها بين الشكل الإشاري المعتمد على الصوت وتقليد الطيور والحيوانات والشكل الشفوي بنوعيه الواضح والغامض والشكل التدويني عن طريق الكتابة وللرسائل الفنية قيمة أدبية في فهم حياة الأدباء وغيرهم من الناس . وتعد الرسائل أقل فنون النثر شيوعاً، ولكنها أكثرها حاجة إلى التدوين لاستخدام الجاهليين إيها في الأمور التجارية والسياسية والقبلية، وفي السفارة بينهم وبين الأكاسرة وملوك المناذرة والغساسنة.

ب - كتاب الرسالة الجاهلية: ومما يثبت ذلك أن لقيط بن يعمر الإيادي مثلاً، كان يحسن الفارسية، وكان من مقدمي تراجمة كسرى سابور، وكذلك كان عدي بن زيد العبادي وإخوته من كتاب الأكايرة والمترجمين عندهم. ولا شك أن موضوع التدوين في العصر الجاهلي كان مقتصرًا على الحاجات الضرورية المهمة في حياتهم لعدم وجود استقرار اجتماعي عام أو نظام دولة ثابت وقد كانت أهم الموضوعات التي تخضع للتقييد :

١-العهود والمواثيق في التحالف والصلح

٢-الصكوك التجارية والعقود

٣-الكتابات الدينية

٤-الأشعار

٥-الرسائل

وفي موضوع الرسائل فقد تبادل أفراد المجتمع الجاهلي الرسائل بشكل ميسور رغم أنه لم يصلنا منها إلا القليل لضعف الكتابة وعدم الاهتمام بكتابة وحفظ الوثائق ومن هذه الرسائل :

١-كتاب (قصي بن كلاب) بمكة إلى أخيه من أمه (رزاح بن

ربيعة العذري بالشام يطلب منه النصرة في زعامته لمكة .



٢- كتاب من قيصر إلى امرئ القيس بعد ان سيره على رأس جيش
لنصرته ومع الكتاب حلّة مسمومة

ونص الرسالة : ((إني قد بعثت إليك بحلتي التي ألبسها يوم
الزينة لتعرف فضل منزلتك عندي ، فإذا وصلت إليك فالبسها على
اليمن والبركة ، واكتب إلي من كل منزل بخبرك))

٣- رسالة من المنذر الأكبر بن ماء السماء إلى كسرى أنو شروان
يصف له فيها سببه رومية فائقة الجمال أصابها في بعض حروبه
مع الحارث بن ابي شمر الغساني وقد بعث بها إليه هدية .

٤- صحيفة الشاعر المتلمس التي كتب بها عمرو بن هند إلى
عاملة على البحرين ونصها: ((باسمك اللهم، من عمرو بن هند
إلى المكعب: إذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه
ثم ادفنه حياً))

٥- صحيفة طرفة بن العبد : الرسالة نفسها التي كتبت للمتلمس .

٦- رسالة النعمان بن المنذر إلى كسرى مع وفد وجوه العرب الذين
بعث بهم إليه ليبيّنوا فضل العرب على جميع الأمم بعد أن كان

النعمان قد حضر عنده مجلساً للمفاخرة بين الأمم طعن فيه كسرى بالعرب وتنقصهم بأشياء كثيرة.

٧-رسالة النعمان إلى كسرى يخبره بموت عدي بن زيد وكان عدي يلي المكاتبه عند الملك إلى ملوك العرب في أمورها وفي خواص أمور الملك ويلتمس منه فيها أن يعين ابنه زيد بن عدي لكفايته فيها وليعوضه من فقد أبيه الذي مات في سجنه .

٨-رسالتان تنسبان إلى أكثم بن صيفي الحكيم التميمي .

٩-رسالة حنظلة بن أبي سفيان من مكة المكرمة إلى أبيه في اليمن وكان في تجارة له فيها ونصها : ((إني أخبرك أن محمداً قام بالأبطح غدوة فقال : أنا رسول الله أدعوكم إلى الله)) وقد عرف الجاهليون أشكالاً متعددة من الرسائل شكل إشاري كإيقاد النيران على رؤوس الجبال ونباح الكلاب وشكل لغوي يعتمد الرمز لنقل معانيه فظاهره ساذج ومضمونه عميق ومنها رسالة (يوم الوقيط) وقد جاءت هذه الرسالة على نمطين شعري ونثري ومنسوبة لنا شبي الأعور الغبري وشكل شعري كالرسالة التي جاءت على لسان (سنان بن ابي حارثة المري)والثانية رسالة

الأسير العنبري السالفة الذكر وشكل تدويني مكتوب على وسيلة للكتابة

ج- ومن أبرز خصائص هذه الرسالة:

١- الإيجاز : لان الجاهلي إذا كتب اقتضب وكذلك يفعل إذا خطب وإذا بعث برسالة شفوية توخى الاختصار في لفظه ومعانيه .

٢- سهولة اللغة ولينها من حيث العبارات المأنوسة والكلمات المحسوسة .

٣- اعتماد لغة التخاطب نفسها دون اهتمام بجناس او طباق أو تورية أو أي محسن لفظي سوى السجع .

ج- أنواع الرسائل الجاهلية : اعتمد الجاهليون في حياتهم الثقافية على الشعر والنثر واعتبروا أن النثر وسيلة للتفكه، والتعليم والعمل الاجتماعي والسياسي وأهم فنونه ، وما وصل إلينا من نصوص الرسائل الجاهلية قليل جداً،

١ - منها ما هو ذو طابع سياسي: كرسالة النعمان بن المنذر إلى كسرى، حين جهز إليه وفداً ضم وجوه العرب من قبائل مختلفة،

ليتكلم كل منهم أمام كسرى بما يحضره عن مآثر العرب ومفاخرهم
إذا صح هذا الخبر.

٢ - **ومن تلك الرسائل ما يكون في القبائل:** من عهود ومحالفات
تقتصر على أغراض ضيقة جداً، ويمكن أن تعد وثائق تاريخية.
ومثالها كتاب التحالف بين عبد المطلب بن هاشم، وقبيلة خزاعة
على التناصر والتعاون مدى الأيام في جمل مرسلّة معبرة، تطول
وتقتصر، مع قوة وإحكام.



الباب التاسع

فن المنافرات

في العصر الجاهلي

أ - تعريف المنافرات الجاهلية:

تعد المنافرات من الفنون الأدبية التي أسهمت في رسم صورة واقعية للعرب الجاهليين حيث يذكر المتفخرون مآثر أنفسهم إن كانوا أفراداً، ومآثر أقوامهم إن كانوا قبائلًا.

ب - أنواع المنافرات الجاهلية :

والمنافرات نوعان:

١ - منافرات تحدث بين اثنين أو أكثر من سادة العرب وأشرفهم :

وفيها يشيد كل من المتفخرين بحسبه ونسبه ومجده وسجاياه، أمام حكم من أشرف العرب أو كهانهم، ليكون له القول الفصل في تفضيل أحد الطرفين على الآخر. ولكن الحكم يسعى في كثير من الأحيان إلى الصلح بين المتنافرين، تفادياً للشر، ويتحاشى الحكم



لأحدهما على الآخر، ويلقي عليهم كلاماً بليغاً يدعوهم فيه إلى السلام والصفاء. ومن ذلك ما كان من هرم بن قطبة الفزاري، حين تنافر إليه عامر بن الطفيل وعلقمة ابن علاثة بعد أن اشتد النزاع بينهما، فجعل هرم يطاولهما، ويمهد للصلح بينهما، حتى قال لهما أخيراً: «أنتما كركبتي البعير، تقعان إلى الأرض معاً وتقومان معاً». فرضياً بقوله وانصرف كل منهما إلى قومه. واشتهر من هؤلاء الحكام أيضاً: ربيعة ابن حذار، والأقرع بن حابس، ونفيل بن عبد العزى، وهاشم بن عبد مناف.

٢- منافرات تحدث بين قبيلتين:

كربيعة ومضر، أو قيس وتميم. وهذا ما يحيل المنافرة إلى صورة من صور الخطابة، إذ يقف كل سيد ليعدد مآثر قومه أمام الحكم، بحضور سادة القبائل وأشرفها ويحاول التأثير في السامعين ليحوز الإعجاب والحكم له بالغلبة على خصمه، وإذا فصل الحكم بين المتنافرين، سجع في كلامه حيناً، وأرسله حيناً آخر.

وقد روى الطبري كلمة لنفيل بن عبد العزوى في منافرة عبد المطلب بن هاشم، وحرب بن أمية، وهي مسجوعة كما روى أبو عبيدة في النقائص منافرة جرير بن عبد الله البجلي، وخالد بن أرطاة الكلبى إلى الأقرع بن حابس، وهي مسجوعة أيضاً، وبنيت

على السجع كذلك منافرة علقمة بن علاثة، وعامر بن الطفيل .
ولم نسق ذلك لنسلم بصحة هذه المروييات من المنافرات وصحة
صياغتها، ولكننا سقناه لتخلص منه إلى أنه ثبت عند من كانوا
يروون المنافرات والخطب الجاهلية أنها كانت تعتمد اعتمادا شديدا
على السجع، ويؤيد ذلك قول الجاحظ: إن "ضمرة بن ضمرة وهم
بن قطبة، والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكمون
وينفرون بالأسجاع، وكذلك ربيعة بن حذار" ، وقد اشتمل هذا
النص على خطباء من تميم، وأسد وفزارة وقريش.

حسين علي النداوي

أشكال خطاب النثر الفني الجاهلي



الباب العاشر

فن المفاخرات

في العصر الجاهلي

أ- تعريف المفاخرة:

المفاخرة: محاورة كلامية بين اثنين أو أكثر، وفيها يتباهى كل من المتفاخرين بالأحساب والأنساب، ويشيد بما له من خصال، وما قام به من جلائل الأعمال،

ب- أنواع المفاخرة:

١- المفاخرة بين قبيلتين:

وكانت تحدث بين القبائل كربيعة ومضر، وبكر وتغلب من ربيعة، وقيس وتميم من مضر، وقد تغلغت المفاخرات في بطونهم حتى كانت بين ابني العم في العشيرة الواحدة مثل ما حدث بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة، وقد تنافرا إلى هرم بن قطبة الفزاري

٢-المفاخرة بين اثنين :

وكان الرجلان إذا تنازعا الفخر، وادعى كل منهما أنه متفوق على صاحبه، نفرا إلى حاكم يرضيانه، ليقضي بينهما، فمن فضله على صاحبه كان له غنم الحكم، وعلى صاحبه غرم الجعل المفروض من الإبل أو غيرها. ولكن الحكم كثيراً ما كان يتحاشى الحكم لأحدهما على الآخر، ويعمد إلى الصلح بين المتنافرين، حسماً للنزاع، وتفادياً للشر. ويلقي عليهما كلاماً بليغاً يدعوها فيه إلى الصفاء والسلام والمودة والمحبة. من ذلك ما كان من هاشم بن عبد مناف في خزاعة وقريش حين نفرتا إليه، فقال: "أيها الناس، نحن آل إبراهيم، وذرية إسماعيل، وبنو النضر بن كنانة، وبنو قصي بن كلاب، وأرباب مكة، وسكان الحرم، لنا ذروة الحساب والنسب، ومعدن المجد، ولكل في كل حلف يجب عليه نصرته، وإجابة دعوته، إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم. يا بني قصي، أنتم كغصني شجرة، أيهما كسر أوحش صاحبه، والسيف لا يسان إلا بغمده، ورامي العشيرة يصيبه سهمه. أيها الناس، الحلم شرف، والصبر ظفر، والمعروف كنز، والجود سؤدد، والجهل سفه، والأيام دول، والدهر غير، والمرء منسوب إلى فعله، ومأخوذ بعمله، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد، ودعوا الفضول تجانبكم

السفهاء، وأكرموا المجلس يعمر ناديم، وحابوا الخليط يرغب في جواركم، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة، وإياكم والأخلاق الدنية، فإنها تضع الشرف، وتهدم المجد، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به". فأذعن له الفريقان بالطاعة، وتصالحا. ومن ذلك ما حدث من هرم بن قطبة الفزاري حين نفر إليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريان، فقد روي: أن عامراً وقف لعلقمة يوماً، فجعل ينازعه الشرف في قومه، وتفاقم بينهما الأمر، فكان مما قاله عامر: والله لأنا أشرف منك حسباً، وأثبت منك نسباً، وأطول قصباً! قال علقمة: أنا فرك، وأنا أشرف منك أمة، وأطول قمة، وأبعد همة. وطل بينهما الكلام. فتواعدا على الخروج إلى من يحكم بينهما. وجعلا يطوفان الأحياء. وهاب الناس أن يحكما بينهما. خيفة أن يقع في حييها الشر. حتى دفعا إلى هرم بن قطبة الفزاري "وهو غير هرم بن سنان المري ممدوح زهير". فلما علم بأمرهما، أمر بنيه أن يفرقوا جماعة الناس تفادياً للفتنة، وجعل يطاولها، ويخوف كل واحد منهما من صاحبه حتى لم يبق لواحد منهما هم سوى أن يسوي في حكمه بينهما، ثم دعاهما بعد ذلك، والناس شهود، فقال لهما: أنتما مركبتي البعير، تقعان إلى الأرض معاً، وتقومان معاً". فرضيا بقوله، وانصرفا عنه

إلى حبيهما. وقد عمر هرم هذا إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقال عمر: أيهما كنت منقرًا؟ فقال: يا أمير المؤمنين لو قتلها الآن لعادت جذعة "يعني الحرب أو الفتنة" فقال له عمر: "إنك لأهل لموضعك من الرياسة".

الباب الحادي عشر

فن المناظرات

في العصر الجاهلي

أ - تعريف المناظرة الجاهلية :

المناظرة حوار ومحاجة بين شخصين خصمين أو شيئين متباينين في صفاتها بحيث تظهر خواص كل شخص أو شيء على حدة من خلال نصرته لنفسه وتفنيده لمزاعم نفيه بأدلة من شأنها أن ترفع من قدره وتحط من مكانة ومقام خصمه بحيث يميل السامع عنه إليه مصوغاً ضمن معاني ومراجعات ترتب على سياق محكم ليزيد ذلك أنشاط السامع وتنمي فيه الرغبة في حل المشكل

ب - شروط المناظرة:

للمناظرة شروط متعددة منها .

- ١- أن تكون بين خصمين متضادين ومتباينين في الصفة
- ٢- إظهار خواص كل خصم

- ٣- استخدام الحجج والبراهين من قبل كل خصم
- ٤- رفع قدر كل خصم أمام مناظره
- ٥- محاولة جذب ميل السامع للمناظرة
- ٦- صياغة المناظرة بمعاني حسنة
- ٧- حل المشكلة التي دفع التدافع والتناظر عليها .

ج - نماذج من المناظرات :

١ - مناظرة النعمان بن المنذر وكسرى أنو شروان في شأن العرب

روى ابن القطامي عن الكلبي قال : قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين فذكروا من ملوكهم وبلادهم - فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم لا يستثنى فارساً ولا غيرها فقال كسرى وأخذته عزة الملك : يا نعمان لقد فكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم ونظرت في حالة من يقدم عليّ من وفود الأمم - فوجدت للروم حظاً في اجتماع ألفتها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها وأن لها ديناً يبين حلالها وحرامها ويرد سفيهاً ويقيم جاهها - ورأيت الهند نحو من ذلك في حكمتها وصبها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعتها وطيب أشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها في آلة

الحرب وصناعة الحديد وأن لها ملكا يجمعها - والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس لهم ملوك تضم قواصيمهم وتدبر أمرهم ولم أر للعرب شيئا من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة ومع أن مما يدل على مهانتها وذلتها وصغر همتها محلتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة والطيور الحائرة يقتلون أولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها وأن قرى أحدهم ضيفا عدها مكرمة وإن أطعم أكلة عدها غنيمة تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم ما خلا هذه التنوخية التي أسس جدي اجتماعا وشد مملكتها ومنعها من عدوها فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا وأن لها مع ذلك آثارا ولبوسا وقرى وحصونا وأمورا تشبه بعض أمور الناس (يعني اليمن) . ثم لا أراكم تستكثنون على ما بكم من المذلة والقلة والבוؤس حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس . قال النعمان : أصلح الله الملك . حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ويعظم خطبها وتعلو درجتها إلا أن عندي

جوابا في كل ما نطق به الملك في غير رد ، عليه ولا تكذيب له فإن
أمنني من غضبه نطقت به قال كسرى : قل فأنت آمن قال النعمان
: أما أمتك أيها الملك : فليست تنازع في الفضل لموضعها الذي
هي به من عقولها وأحلامها وبسطة محلها وبحبوحة عزها وما
أكرمها الله به من ولاية أبائك وولايتك . وأما الأمم التي ذكرت فأية
أمة تقرنها بالعرب لأفضلتها قال كسرى : بماذا ؟ قال النعمان :
بعزها ومنعتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها
وشدة عقولها وأنفتها ووفائها . فأما عزها ومنعتها فإنها لم تنزل
مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك وقادوا الجند لم
يطمع فيهم طامع ولم ينهلم نائل حصونهم ظهور خيلهم ومهادهم
الأرض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف وعدتهم الصبر ، إذ
غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور . وأما
حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من
الهند والصين المنحفة والترک المشوهة والروم المقشرة . أما
أنسابها وأحسابها : فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها
وأصولها وكثيرا من أولها حتى أن أحدهم ليسأل عن وراء أبيه
دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبا
فأبا حاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم فلا يدخل رجل في

غير قومه ولا ينتسب إلى غير نسبه ولا يدعى إلى غير أبيه . وأما سخاؤها : فإن أدناهم رجلا الذي تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغة في حمولة وشبعه ورية فيطرقة الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزي بالشربة فيعقرها له ويرضى أن تخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحداثة وطيب الذكر . أما حكمة أسنتهم : فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من السنة الأجناس - ثم خيلهم أفضل الخيل ونساؤهم أعف النساء ولباسهم أفضل اللباس ومعادنهم الذهب والفضة وحجارة جبالهم الجزع ومطاياهم التي لا يبلغ مثلها سفر ولا يقطع بمثلها بلد فقر . وأما دينها وشريعته : فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من نسكه بدينه أن لهم أشهر حرما محرما وبيتا محجوبا ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وأدراك رغمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى . وأما وفاؤها : فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماءة لا يحلها إلا خروج نفسه وأن أحدهم يرفع عودا من الأرض فيكون رهنا بدينه فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته وأن أحدهم ليبلغه أن رجلا استجار به وعسى أن يكون

نائيا عن داره فيصاب فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره وأنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله ؛ وأما قولك أيها الملك يئدون أولادهم فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفة من العار وغيره من الأزواج . وأما قولك إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على وصفت منها فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له فعمدوا إلى أجلها وأفضلها فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنها أكثر البهائم شحوما وأطيبها لحوما وأرقها ألبانا وأقلها غائلة وأحلاها مضغة وأنه لا شيء من اللحمان يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه . أما تحاربهم وأكل بعضهم لبعض وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفا وتخفوت نهوض عدوها إليها بالزحف وأنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون أمورهم وينقادون لهم بأزمتهم . وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين مع أنفتهم من أداء الخراج والوطس أي الضرب الشديد بالرجل على الأرض بالعسف وأما اليمن التي وصفها الملك فإنما أتى جد الملك إليها الذي أتاه عنده

غلبة الجيش له على ملك متسق وأمر مجتمع فأتاه مسلوبا طريدا مستصرخا ولولا ما وتر به من العرب لمال إلى مجال ولوجد من يجيد الطعان ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار . قال : فعجب كسرى لما أجابه النعمان به وقال : إنك لأهل لموضعك الرياسة في أهل إقليمك ثم كساه من كسوته وسرحه إلى موضعه من الحيرة فلما قدم النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم بعث إلى أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة التميميين وإلى الحارث بن ظالم وقيس بن مسعود البكرين وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن علانة وعامر بن الطفيل العامريين وإلى عمرو بن الشريد السلمي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي والحارث بن ظالم المري - فلما قدموا عليه في الخورنق قال لهم قد عرفتم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غور أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خوفا كبعض طماطمته في تأديتهم الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله - فاقتص عليهم مقالات وما رد به عليه فقالوا : أيها الملك وفقك الله ما أحسن ما رددت وأبلغ ما حججته فمرنا بأمرك وادعنا إلى ما شئت . قال : إنما أنا رجل منكم وإنما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوف

من ناحيتكم وليس شيء أحب إلي مما سدد الله أمركم وأصلح به شأنكم وأدام به عزكم - والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا إلى كسرى فإذا دخلتم : نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه ولا تتخذلوا له انخذال الخاضع الذليل وليكن أمر بين ذلك تظهر به دماثة حلومكم وفضل منزلتكم وعظيم أخطاركم وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفي ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها فإنما دعاني إلى التقدمة إليكم علمي بميل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه فلا يكون ذلك منكم فيجد في آدابكم مطعنا فإنه ملك مترف وقادر مسلط ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حلل الملوك وأعطى كل رجل منهم حلة وعممه عمامة وختمه بياقوته وأمر لكل رجل منهم بنجبية مهربية وفرس نجبية وكتب معهم كتابا :

أما بعد : فإن الملك ألقى إلي من أمر العرب ما قد علم وأجبت به بما قد فهم مما أحببت أن يكون منه على علم ولا يتلجلج في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجزت دونه بمملكته وحمت ما يليها بفضل قوتها تبلغها من الأمور التي يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير

والمكيدة - وقد أوفدت أيها الملك رهطا من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم فليسمع الملك وليغمض لا عن جفاء أن ظهر من منطقتهم وليكرمني بإكرامهم وتعجيل سراحهم. وقد نسبتهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرتهم . فخرج القوم في أهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن فدفعوا إليه كتاب النعمان فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلسا منهم فلما أن كان بعد ذلك بأيام أمر مرزبته ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسي عن يمينه وشماله ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه وأقام الترجمان ليؤدي إليه ثم أذن لهم في الكلام .

فقام أكتهم بن صيفي فقال: إن أفضل الأشياء أعاليها وأعلى الرجال ملوكها وأفضل الملوك نفعا وخيراً لأزمنة أخصبها وأفضل الخطباء أصدقها . الصدق منجاة والكذب مهوأة والشر لجابة والحزم مركب صعب والعجز مركب وطيء، آفة الرأي الهوى والعجز مفتاح الفقر وخير الأمور الصبر وحسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة وإصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي ومن فسدت بطانته كان كالغاصّ بالماء . شر البلاد بلاد لا أمير بها، وشر الملوك من خافه البريء. المرء يعجز لا محالة أفضل الأولاد البررة،

خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة أحق الجنود بالنصر من حسنت سيرته. يكفيك من الزاد ما بلغك المحل. حسبك من شر سماعه. الصمت حكم وقليل فاعله. البلاغة الإيجاز. من شدد نفر ومن تراخي تألف فتعجب كسرى من أكثم ثم قال : ويحك يا أكثم ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وضعك كلامك في غير موضعه قال أكثم : الصدق ينبئ عنك لا الوعيد قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى قال أكثم : رب قول أنفذ من صول ثم قام حاجب بن زرارة التميمي وقال: وري زندك، وعلت يدك وهيب سلطانتك - إن العرب أمة قد غلظت أكبادها واستحصدت مرثها ومنعت درتها وهي لك وامقة ما تألفتها مسترسلة ما لاينتها سامعة إن سامحتها وهي العلقم مرارة وهي الصاب غضاضة والعسل حلاوة والماء الزلال سلاسة . نحن وفودها إليك وألسنتها لديك نمتنا محفوظة وأحسابنا ممنوعة وعشائرننا فينا سامعة مطيعة إن نوبك لك حامدين خيرا فلك بذلك عموم محمدتنا وإن نذم لم نخض بالذم دونها قال كسرى : يا حاجب ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها قال حاجب : بل زئير الأسد بصولتها قال كسرى : كفى ذلك ثم قام الحارث البكري فقال : دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها وعلو سنائها من طال رشائوه كثر متحه ومن ذهب ماله قل منحه تناقل الأقاويل يعرف

اللب وهذا مقام سيوجف بما تنطق الركب وتعرف به كنه حالنا العجم والعرب ونحن جيرانك الأدنون وأعوانك المعينون خيولنا جمّة وجيوشنا فخمة إن استنجدتنا فغير ريبص وإن استطرفتنا فغير جهض وإن طلبتنا فغير غمص ولا ننيّ لذعر ولا نتنكر لدهر رماحنا طوال وأعمارنا قصار. قال كسرى: أنفس عزيزة وأمة ضعيفة قال الحارث: أيها الملك وأنى يكون لضعيف عزة أو لصغير مرة؟ قال كسرى: لو قصر عمرك لم تستول على لسانك نفسك قال الحارث: أيها الملك إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغررا بنفسه على الموت فهي منية استقبلها وجنان استدبرها والعرب تعلم أن أبعث الحرب قدما وأحسبها وهي تصرف بها حتى إذا جاشت نارها وسعرت لظاها وكشفت عن ساقها جعلت مقادها رمحي وبرقها سيفي ورعدا زئيري ولم أقصر عن خوض خضخاضها حتى أنغمس في غمرات لججها وأمون فلكا لفرساني إلى ببحوحة كيشها فاستمطرها هادما وأترك حماتها جزر السباع وكل نسر قشعم ثم قال كسرى لمن حضره من العرب: كذلك هو؟ قالوا: فعاله أنطق من لسانه قال كسرى: ما رأيت كاليوم وفدا أحشد ولا شهودا أوفد.

ثم قام عمرو بن الشريد السلمي فقال : نعم بالك ودام في السرور
 حالك إن عاقبة الكلام متدبرة وأشكال الأمور معتبرة وكثير ثقله
 وفي قليل بلغة وفي الملوك سورة العز وهذا منطوق له ما بعده :
 شرف فيه من شرف وخمل فيه خمل لم نأت لضيمك ولم نغد
 لسخطك ولم نتعرض لرفدك إن في أموالنا منتقدا وعلى عزنا معتمدا
 إن أورينا نارا أثقبنا وإن أود دهر بنا اعتدالنا إلا أنا مع هذا لجوارك
 حافظون ولمن رامك كافحون حتى يحمد الصدر ويستطاب الخبر
 قال كسرى : ما يقوم قصد منطقك بإفراط ولا مدحك بدمك قال عمرو
 : كفى قصدي هاديا وبأيسر إفراطي مخبرا ولم يلم من غربت نفسه
 عما يعلم ورضي من القصد بما يبلغ قال كسرى : ما كل ما يعرف
 المرء ينطق به اجلس . ثم قام خالد بن جعفر الكلابي فقال :
 أحضر الله الملك إسعادا وأرشدته إرشادا إن لكل منطق فرصة ولكل
 حاجة غصة وعي المنطق أشد من عي السكوت وعتار القول أنكأ
 عن عتار الوعث وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نهوى وغصة
 المنطق بما لا نهوى غير مستساغة وتركي ما أعلم من نفسي
 ويعلم من سمعي إنني له مطيق أحب إلي من تكلفي ما أتخوف
 وأتخوف مني وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان وهو لك من خير
 الأعوان ونعم حامل المعروف والإحسان أنفسنا بالطاعة لك باخمة

ورقابنا بالنصيحة خاضعة وأيدينا لك بالوفاء رهينة قال كسرى :
 نطقت بعقل وسمرت بفضل وعلوت بنبل . ثم قام علقمة بن علاثة
 العامري فقال : نهجت لك سبل الرشاد وخضعت لك رقاب العباد إن
 للأقاويل مناهج وللآراء موالج وللعويص مخارج وخير القول أصدقه
 وأفضل الطلب أنجحه - أنا وإن كانت المحبة أحضرتنا والوفادة
 قربتنا فليس من حضرتك منا بأفضل ممن عزب عنك بل لو قست
 كل رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا لوجدت له في آبائه دنيا
 أندادا وأكفاء كلهم إلى الفضل منسوب وبالشرف والسؤدد
 موصوف وبالرأي الفاضل والأدب الناقد معروف يحمي حماه ويروي
 نادماه ويذود أعداه ولا تخمد ناره ولا يتحرز منه جاره أيها الملك
 من يبيل العرب يعرف فضلهم فاصنع العرب فإنها الجبال الرواسي
 عزا والبحور الزواجر طميا والنجوم الزواهر شرفا والحصى عددا
 فإن تعرف لهم فضلهم يعزوك وإن تستصرخهم لا يخذلوك قال
 كسرى وخشى أن يأتي منه كلام يحمله على السخط عليه : حسبك
 أبلغت وأحسننت . ثم قام قيس بن مسعود الشيباني فقال : أطاب
 الله بك المر أشد وجنبك المصائب ووقاك مكروه الشدائد ما أحقنا
 إذ أتيناك بأسماعك مالا يحنق صدرك ولا يزرع لنا حقدا في قلبك لم
 نقدم أيها الملك لمساماة ولم ننتسب لمعاداة ولكن لتعلم أنت

ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنا في المنطق غير محجمين وفي الناس غير مقصرين إن جورينا فغير مسبوقين وإن سومينا فغير مغلوبين قال كسرى : غير أنكم إذ عاهدتم غير وافين وهو يعرض به في تركه الوفاء بضمانة السواد قال قيس : ما كنت في ذلك إلا كواف غدر به أو كخافر أخفر بذمته قال كسرى : ما يكون لضعيف ضمان ولا لذليل خفارة قال قيس : أيها الملك ما أنا فيما أخفر من ذمتي أحق بالزامي العار منك فيما قتل من رعيتك وانتحك من حرمتك قال كسرى : ذلك لأن من اتتمن الخونة واستنجد الأئمة ناله من الخطأ ما نالني وليس كل الناس سواء - كيف رأيت حاجب بن زرارة لم يحكم قواه فيبرم ويعهد فيوفي ويعد فينجز ؟ ؟ قال وما أحقه بذلك وما رأيته إلا لي قال كسرى : القوم بزل فأفضلها أشدها ثم قام عامر بن الطفيل العامري فقال : كثر فنون المنطق ولبس القول أعمى من حندس الظلماء وإنما الفخر في الفعال والعجز في النجدة والسؤدد مطاوعة القدرة وما أعلمك بقدرنا وأبصرك بفضلنا والحري أن أدالت الأيام وثابت الأحلام أن تحدث لنا أمورا لها أعلام قال كسرى : وما تلك الأعلام ؟ قال مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر على أمر يذكر قال كسرى : وما الأمر الذي يذكر ؟ قال عامر : مالي علم بأكثر مما خبرني به مخبر قال

كسرى : متى تكاهنت يا بن الطفيل ؟ قال : لست بكاهن ولكني بالرمح طاعن ؟ قال كسرى : فإن أذاك آت من جهة عينك العوراء ما أنت صانع ؟ قال : ما هييتي في قفائي بدون هييتي في وجهي وما أذهب عيني عبث ولكن مطاوعة العبث ثم قام عمرو بن معد يكرب الزبيدي فقال : إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فبلاغ المنطق الصواب وملاك النجدة الارتياح وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة وتوفيق الخبرة خير من اعتساف الحيرة فاجتذب طاعتنا بلفظك واكظم بادرتنا بحلمك وألن لنا كنفك يسلس لك قيادنا فإننا أناس لم يوقس صفاتنا قراع مناقير من أردنا قضا ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضما . ثم قام الحارث بن ظالم المري فقال : إن من آفة المنطق الكذب ومن لؤم الأخلاق الملق ومن خطل الرأي خفنة الملك المسلط فإن أعلمناك أن مواجعتنا لك عن ائتلاف وانقيادنا لك عن تصاف فما أنت لقبول ذلك منا بخليق ولا للاعتماد عليه بحقيق ولكن الوفاء بالعهود وأحكام ولت العقود والأمر بيننا وبينك معتدل ما لم يأت من قبلك ميل أو زلل قال كسرى : من أنت ؟ قال : الحارث بن ظالم قال : إن في أسماء أبائك لدليلا على قلة وفائك وأن تكون أولى بالصدر وأقرب من الوزر قال الحارث : إن في الحق مغضبة والسر في التغافل ولن يستوجب

أحد الحلم إلا مع القدرة فلتشبه أفعالك مجلسك قال كسرى : هذا فتى القوم ثم قال : قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم وتفنن فيه متكلموكم وأولا إني أعلم أن الأدب لم يتقف أودكم ولم يحكم أمركم وأنه ليس لكم ملك يجمعكم فتنتقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة فنطقتم بما استولى على ألسنتكم وغلب على طباعكم لم أجز لكم كثيرا مما تكلمتم به وإني لأكره أن أجبه وفودي أو أحق صدورهم والذي أحب من إصلاح مدبركم وتآلف شواذكم والإعذار إلى الله فيما بيني من خلل فانصرفوا إلى ملككم فأحسنوا مؤازرته والتزموا سفهاءكم أودهم وأحسنوا أدبهم فإن في ذلك صلاح العامة ؟ روى عن الكلبي أنه قال : كان كسرى يحفل بالعرب ويستأنس بمشاهدتهم ويرغب في سماع محادثاتهم ومفاخراتهم ومناقراتهم ولم يدخر وسعا إلا بذله للحصول على ذلك ومما اتفق له أن النعمان بن المنذر كان بمجلسه يوما فقال له : هل في العرب من قبيلة تشرف على قبيلة ؟ قال فبأي شيء ؟ قال : من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء واتصل ذلك بمزية رابعة فبيته أشرف بيت وإليه تنسب القبيلة وبه تعلقوا على غيرها قال : أحضر من هذه صفتهم فطلبهم النعمان فلم يصبهم إلا في آل حذيفة بن بدر وآل ذي الجحدين وآل الأشعث بن قيس بن كندة فأحضرهم في جملة

من عشائريهم ففعد لهم كسرى مجلسا عاما حضره الحكام والعدول والأعيان ثم قال : ليتكلم منكم بمآثر قومه وليصدق . فانتصب حذيفة بن بدر قائما وكان ألسن القوم فقال : قد علمت العرب أن فينا الشرف الأقدم والفخر الأعظم فقيل له : لم ذاك يا أبا فزارة ؟ قال : ألسنا الدعائم التي لا ترام ؟ والعز لا يضام ؟ فقيل له : صدقت ثم قام شاعرهم فقال :

فزارة بيت العز والعز فيهم فزارة بدر حسب بدر نضالها
لها العزة القعساء والحسب الذي بناه لبدر في القديم رجالها
فهيئات قد أعياء القرون التي مضت مآثر بدر مجدها وفعالها
وهل أحد أن مد يوما بكف...إلى الشمس في مجرى النجوم ينالها
فإن يصلحوا يصلح لذاك جميعنا.

وإن يفسدوا يفسد على الناس حالها
ثم قام الأشعث بن قيس فقال: لقد علمت العرب أنا نقاتل عديدها
الأكثر ونقهر جمعها الأكبر وأنا غياث اللزبات زينة المكرمات فقيل
له لم يا أبا كندة ؟ قال: لأننا ورثنا ملك كندة فاستظلنا بأفيائه
وتقلدنا منكبه الأعظم وتوسطنا يحبوجه الأكرم . ثم قام شاعرهم
فقال :

فسائل أبيت اللعن عنا فإننا دعائم هذا الناس عند الجلائل

ثم قام قيس بن عاصم السعدي فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم
في المكرمات وأثبتهم في النائبات ف قيل له : لم ذاك يا أبا بني
سعد ؟ فقال : لأننا أدركهم للثأر وأمنعهم للجار لا نتكلل إذا حملنا
ولا نرام إذا حملنا ثم قام شاعرهم فقال :

لقد علمت قيس وخندف أننا وجل تميم والجموع التي ترى
بأننا ليوث البأس في كل مأزق إذا جز بالبيض الجماجم والطللى
وأنا إذا داع دعانا لنجدةأجبنا سراحا في العلائم من دعا
فهيئات قد أعيا الجميع فعالهم

وقاموا بيوم الفخر مسعاة من سعى
فقال كسرى حينئذ : ليس منها إلا سيد لموضعه ثم أعظم صلاتهم
أجمعين وردهم إلى أقوامهم معظمين

الباب الثاني عشر

الموعظة التقوية

في العصر الجاهلي

أ- الموعظة رؤى وأبعاد:

عرفت الموعظة التقوية طريقها إلى الحياة في كل العصور ولم يخل العصر الجاهلي على الرغم من كونه يتمحور حول عبادة الأصنام أو عبادة مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والكواكب من دعاة نصارى أو يهود أو أحناف من أتباع سيدها إبراهيم عليه السلام ، فقد كان زهير بن أبي سلمى من الشعراء الأحناف وكذلك الشاعر أمية بن أبي الصلت الذي كان يدعو للتوحيد في شعره وكذلك كان ورقة بن نوفل الذي كان يكتب الكتاب العبراني (التوراة) في مكة المكرمة وكذلك كان الراهب بحيرا في بصرى الشام الذي لقي الرسول عليه الصلاة والسلام عندما كان مع عمه أبي طالب

في تجارة لخديجة رضي الله عنها وقد حاول هؤلاء الدعاة أن يعيدوا الناس إلى قضية التوحيد ونحن نعرف كم كان الحبر ورقة بن نوفل متحمساً للنبي محمد عليه الصلاة والسلام حين أكد له أن أهل مكة سيخرجون نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من مكة وأنه يتمنى أن يكون جنبه لينصره على كفار مكة (وثيقة ورقة بن نوفل وحواره مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم) ، وقد ذكر لنا رسول الله صلوات الله عليه أنه شاهد الخطيب المشهور (أكتم بن صيفي) في سوق عكاظ وهو يخطب خطبته المشهورة واعظاً الناس : ((أيها الناس من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت . . .)) .

وتتميز المواعظ التقوية في العصر الجاهلي سواء كانت شعراً أم نثراً بفطريتها وإيجازها وبلاغتها وقدرتها على مخاطبة القلب والعاطفة وتمس العقل وإن كان بشكل بسيط .

ب- موعظة قس بن ساعدة الإيادي:

(أيها الناس اسمعوا وعوا وإذا وعيتم فانتفعوا إنه من عاش مات ومن مات فات

وكل ما هو آت آت مطر ونبات وأرزاق و أقوات
وآباء وأمهات وأحياء وأموات جمع وأشتات وآيات

وأرض ذات رتاج ،وبحار ذات أمواج
ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون
أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا هناك فناموا
أقسم قس قسماً لا حانت فيه ولا آثماً
إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه
ونبياً قد حان حينه وأظلكم أوانه فطوبى
لمن آمن به فهداه ، وويل
لمن خالفه وعصاه

ثم قال:

تباً لأرباب الغفلة من الأمم الخالية والقرون الماضية
يا معشر إباد أين الآباء والأجداد وأين ثمود وعاد
وأين الفراعنة الشداد أين من بنى وشيد وزخرف ونجد وغره المال
والولد

أين من بغى وطغى وجمع فأوعى وقال أنا ربكم الأعلى
ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً وأطول منكم آجالاً وأبعد منكم آمالاً
طحنهم الثرى بكلكله ومزقهم بتطاوله فتلك عظامهم بالية وبيوتهم
خاوية

عمرتها الذئاب العاوية كلا بل هو الله الواحد المعبود ليس والد ولا مولود

ثم أنشأ يقول:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
ورأيت قومي نحوها تمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إلي ولا من الباقيين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر).



الباب الثالث عشر

خصائص النثر الفني

في العصر الجاهلي

- تميز النثر الفني الجاهلي بخصائص عدّة ، من أهمها:
- ١- كان ذلك النثر، بفنونه كلها متمماً للشعر الجاهلي في تصوير جوانب أخرى من الحياة العربية، تصويراً أقرب إلى الحقيقة والواقع، بما في تلك الحياة من مفارقات ومتناقضات.
 - ٢- توجّه النثر إلى نواح خلقية وتهذيبية، والميل إلى الخير والإصلاح في الوصايا، وبعض والخطب والحكم، والارتداد إلى الغضب والتهور، وإشادة بالأحساب والأنساب، وإشاعة للعصبية والمفاخر القبلية، والمصالح الخاصة، في المنافرات وبعض الخطب والحكم الأخرى،

- ٣- تصوير النثر الجاهلي لذلك كله هو تصوير أقرب إلى الحقيقة والواقع، لأن واضعي بعض تلك النصوص، أو صائغيها، قد حاولوا، بقوة ملاحظتهم ومزيد عنايتهم أن يجعلوها محاكية لأصولها الأولى، مستهدين في ذلك بقرائن مختلفة. ولهذا فإن تلك النصوص النثرية - مع ما اعترى معظمها من تغيير أو زيادة أو نقص - هي في روحها وبنائها مقاربة لأصولها الجاهلية،
- ٤- تغلب على هذا النثر، بفنونه المختلفة العناية والتجويد، والبعد، ما أمكن، عن الهلهة والضعف.
- ٥- يأتي النثر الجاهلي مرسلًا طبيعيًا تارة، ومتكلفًا محليًا بالسجع والتصوير البياني تارة أخرى، بحسب الفن النثري من جهة، وبحسب الحال والمقام من جهة ثانية،
- ٦- رغبة في تحقيق الإمتاع، أو التأثير والإقناع لدى السامع، والنفوذ إلى مكامن نفسه.
- ٧- تخير الجاهليون الكلام في نثرهم وحرصوا على القوة والجزالة، والتنغيم الموسيقي بين الجمل إذا احتاجوا إلى ذلك، كما في سجع الكهان والمنافرات.
- ٨- تترجح النصوص النثرية الجاهلية بين الطول والقصر، ولكل منها موضع يحسن فيه. فالخطبة نفسها قد تطول وقد تقصر،

وكذلك الوصية، أما الحكم والأمثال وأسجاع الكهان فلا تخرج عن القصر والإيجاز.

٨- يغلب على ذلك النثر الجاهلي الوضوح والسهولة في ألفاظه وتراكيبه عدا سجع الكهان،

١٠- في سجع الكهان تعدد كاتبوه الغرابة في الأداء، والغموض في التعبير، إمعاناً منهم في الإيهام والإبهام،

١١- وجود ألفاظ غريبة، في طائفة من وصاياهم ومنافراتهم وبعض خطبهم، تناسبا مع واقع البيئة والحياة الجاهلية

حسين علي النداوي

أشكال خطاب النثر الفني الجاهلي



الفهرس

حسين علي النداوي

أشكال خطاب النثر الفني الجاهلي

